جان كريستوف روفان



الطوق الأحمر

ترجمة: ريتا باريش

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

الطوق الأحمر

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

Le Collier rouge

by: Jean-Christophe Rufin

الطوق الأحمر - رواية

تأليف: جان كريستوف روفان

ترجمة: ريتا باريش

التدقيق اللغوي: عمر خولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: خالد الناصري

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 01 - 2

الطبعة الأولى: 2015

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

جان كريستوف روفان

الطوق الأحمر

رواية

ترجمة: ريتا باريش

SPOTLIGHT
ON RIGHTS

تم إصدار هذا الكتاب بمساعدة منحة تقدم بها برنامج
"أضواء على حقوق النشر" في أبو ظبي

This book has been published under the Spotlight on Rights
initiative of the Abu Dhabi International Book Fair

- 1 -

أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة بعد الظهر. علاوة على الحرارة التي تذيب المدينة، كان عواء الكلب الرابض منذ يومين في ساحة ميشليه لا يُحتمل، ولم ينقطع خلالهما عن النباح. كان كلباً بنياً ذا وبرٍ قصير، بلا طوق وبأذن مشرومة، ينبح بوتيرة واحدة مرةً كل ثلاث ثوانٍ تقريباً، بصوت حاد يبعث على الجنون.

دأب دوجو على رميه بالحجارة من عتبة الثكنة القديمة التي تحوّلت خلال الحرب إلى سجن للفارين والجواسيس، إنما دون فائدة ترجى، فكلما شعر الكلب باقتراب الحصى، تراجع قليلاً، ثم عاود النباح بأسوأ مما كان. كان في الثكنة سجين واحد، ولم يكن ينوي الفرار، إلا أن سوء الحظ، قاد دوجو ليكون حارسه الوحيد، ولم يسمح له ضميره المهني بالابتعاد، فما كان بإمكانه اللحاق بالحيوان ولا جعله يخاف.

ما كان أحد في هذا الحر الخانق ليغامر بالخروج. أخذ صوت النباح يرتدّ من حائط إلى آخر في الشوارع الفارغة. لوهلة خطر لدوجو أن يستخدم مسدسه، إلا أن الحرب انتهت، وتساءل ما إن كان يحق له

إطلاق النار في وسط المدينة، ولو على كلب. خصوصاً أن السجين قد يستخدم مثل هذه الحادثة كذريعة لحشد الناس أكثر ضد السلطات.

يمكن القول أن دوجو يكره ذلك الرجل، وكذلك أيضاً كان انطباع رجال الشرطة الذين قاموا باعتقاله، فهو لم يقم بالدفاع عن نفسه عند اقتياده إلى السجن العسكري، بل ظل ينظر إليهم بابتسامة وادعة لم ترق لهم، كمن كان واثقاً من فعلته، حتى ليخال المرء أنه وافق على اقتياده طوعاً، وأن تحريك الثورة في البلاد كان متوقفاً عليه.

قد يكون ذلك صحيحاً على أية حال. وعليه، قام دوجو بالإدلاء بشهادته. فما الذي يعرفه - وهو البريتاني[1] الآتي من كونكارنو - عن تلك الناحية التابعة لمقاطعة بيري السفلى؟

وهي كذلك أيضاً - الناحية - لم تكن تروق له بكل الأحوال، فطقسها رطب على مدار السنة، وحار جداً في الأسابيع القليلة التي تشرق فيها الشمس طوال اليوم. أما في الشتاء وموسم المطر، فتتصاعد من الأرض أبخرة كريهة لها رائحة العشب الفاسد، وفي الصيف، يكسو الطرقات غبار جاف. أما رائحة الكبريت النتنة، فما من أحدٍ يعلم كيف وجدت طريقها إلى تلك الناحية الصغيرة التي لا تحيط بها سوى البساتين.

أغلق دوجو الباب ممسكاً رأسه بكلتا يديه، سبب له نباح الكلب صداعاً.لم يكن نقله من الثكنة ممكناً أبداً لنقص الموظفين، كان ينام في مكتبه، على حشيّة يرتبها نهاراً في خزانة معدنية. ليلتان قضاهما مؤرقاً بسبب كلب، ولم يكن هذا مناسباً لسنه، إذ أنه يعتقد جازماً بأنه لا ينبغي

1- بريتاني: Breton، نسبة إلى منطقة بريتانيا شمال غرب فرنسا.

للمرء بعد سن الخمسين أن يتعرض لمواقف مماثلة. كان أمله الوحيد أن يعود الضابط الذي استدعي لأخذ التعليمات بسرعة.

بيرين، نادلة حانة «لي مارونييه»، كانت تذرع الساحة جيئةً وذهاباً وهي تحضر له النبيذ كي يتمكّن من الصمود. فتسلمه الصبية زجاجات النبيذ من النافذة ويناولها المال دون كلمة واحدة. لم تبدُ قلقة من وجود الكلب، حتى أنها، مساء اليوم الأول، توقفت لمداعبته. من الواضح أن سكان المدينة لا يشاطرون دوجو الرأي نفسه.

وضع دوجو زجاجات بيرين تحت المكتب، يحتسيها خلسة كي لا يضبط متلبساً وهو يشرب إن مَثُلَ الضابط فجأة في المكتب، ولكونه واهناً بسبب قلة النوم، لم يكن متأكداً من قدرته على التنبّه له وهو يدخل.

ربما غفا حقاً لبرهة، فحالما فتح عينيه، وجده أمامه واقفاً عند مدخل المكتب، تكاد بزته ذات اللون الأزرق الملكي المزرّرة حتى الياقة تخنقه، فقماشها كان سميكاً بالنسبة إلى ذلك الفصل الحار.

كان الرجل طويل القامة، يحدّق بدوجو دون تساهل من رأسه حتى أخمص قدميه. استقام الحارس وأغلق بأصابعه المرتبكة بعضاً من أزرار سترته، ثم نهض وأدّى التحية مدركاً أن عينيه كانتا متنفختين، وأن رائحة الخمر تفوح منه.

– ألا يمكنك إسكات هذا الكلب؟

كانت تلك كلمات الضابط الأولى وهو ينظر من النافذة، دون أن يبدي أدنى اهتمام بدوجو الذي لم يزل في وضعية الاستعداد. كان الأخير مصاباً بنوبة غثيان ولا يجرؤ على فتح فمه.

- لا يبدو شرساً، أردف القاضي العسكري، عندما أوصلني السائق لم يكن يتحرك.

وهكذا أدرك دوجو أن السيارة توقفت بجانب السجن دون أن يسمعها، لا شك أنه غفا لأطول مما يعتقد.

استدار الضابط نحوه وقال: «استرح» بنبرة كسولة، من الواضح أنه لم يكن رجلاً يهتم بالنظام، كان يتصرف بعفوية تشي بأنه يعتبر النظام المنضمّ فلكلوراً متعباً، تناول كرسياً وجلس منفرج الساقين منكباً على ملف. استراح دوجو وخطر له أن يشرب قدحاً آخر في هذا الحر، وألّا يمانع الآخر مشاركته، لكن سرعان ما طرد الفكرة، واكتفى بابتلاع ريقه بصعوبة، لتبريد حلقه.

- هل هو هناك؟ سأل الضابط وهو يومئ إلى الباب الحديدي المؤدي إلى الزنزانات.

* أجل سيدي.

- كم واحداً لديك الآن هناك؟

* واحد فقط سيدي، فرغت الزنزانات منذ انتهاء الحرب.

لسوء حظ دوجو، كانت الأمور لتجري بسلاسة، بوجود سجين واحد. إلا أن لديه الآن ذلك الكلب الذي كان ينبح دون توقف بالقرب من السجن.

كان الضابط يتعرق، حل بخفة أزرار بذلته العشرين، خمّن دوجو أنه لم يكن قد زرّرها إلا قبل أن يدخل بقليل، للحفاظ على هيبته أمامه. كان رجلاً في الثلاثين من عمره، أصبح من المألوف بعد الحرب، رؤية

الشرائط والرتب تزهر على الأكتاف الشابة. ويبدو للناظر أن خط شاربيه لم يكن قد اكتمل بعد، فكانا أشبه بحاجبين نبتا تحت أنفه. عيناه زرقاوان بلون الفولاذ، إلا أنهما وادعتان تشكوان حسر النظر، كما هو واضح من النظارة ذات الإطار العظمي المتدلية من جيب سترته، هل نزعهما عن عينيه بدافع التجمّل؟ أم كان يرغب في أن تكون له تلك النظرة التي تربك المشتبه بهم؟

أخرج منديلاً بمربعات، وأخذ يجفف جبينه.

- اسمك أيها المساعد؟

* دوجو رايموند سيدي.

- هل خدمت في الحرب؟

استقام السجان. كانت تلك فرصته لإحراز بعض النقاط لصالحه وجعل الضابط ينسى أمر هندامه غير المرتب، والتلميح إلى أنه ليس ممتناً لكونه يشغل وظيفة السجان تلك.

- بالتأكيد سيدي، خدمت رامياً في سلاح المشاة، لا يبدو عليَّ ذلك، ولكنني قصصت لحيتي..

ولأن الآخر لم يبدُ أنه يصغي تابع القول:

- لقد جرحت مرتين: مرة في الكتف في مارن[2] والثانية في البطن عند صعود المور-أوم.

هزّ الضابط يده قاصداً أنه فهم وما من داعٍ للاسترسال.

2- مارن: بلدة في مقاطعة اللوار أتلنتيك غرب فرنسا، جرت فيها معركة ضد الألمان في الحرب العالمية الأولى عام 1914.

- هل لديك ملفه؟

هرع دوجو إلى درج من الأدراج، فتحه وتناول منه مصنفاً سلّمه للضابط، كان الغلاف الكرتوني خادعاً، فلم يكن يحوي في الواقع سوى على وثيقتين: محضر الدرك ودفتر التجنيد، وسرعان ما أدرك القاضي ألا شيء في الملف لم يكن على دراية به.

نهض الضابط، وفي تلك الأثناء قفز دوجو ليتناول حلقة مفاتيح السجن. إلا أن الضابط توجه نحو النافذة عوضاً عن التوجه إلى الزنزانات.

- عليك أن تفتح النوافذ، فالجو خانق هنا.

* هذا بسبب الكلب سيدي.

كان الكلب في قيظ الظهيرة، ينبح دون توقف، وعندما يلتقط أنفاسه، يتدلى لسانه كمن يلهث.

- من أية فصيلة هو برأيك؟ يبدو وكأنه فايمري[3].

* مع الاحترام سيدي، أود القول إنه ليس سوى كلب لقيط، مثل هذه الكلاب التي نراها بكثرة في الريف، مهمتها حراسة القطعان إلا أنها أيضاً كلاب صيد.

لم يبدُ على الضابط الاهتمام بما قاله دوجو.

- قد يكون من فصيلة كلاب البيرينيه[4] على أقل تقدير.

3- Barque de Weimar بالفرنسية، Weimeraner بالإنكليزية، من فصيلة كلاب الصيد.

4- Berger des Pyrennees: كلب جبلي لحراسة القطعان.

فكر دوجو في أنه كان من الأفضل له لو لم يقم بهذه المداخلة، فليس الضابط سوى مجرد أرستقراطي آخر مهووس بالصيد بالكلاب، أحد المتغطرسين الذين ارتكبوا العديد من الأخطاء خلال الحرب بسبب عدم كفاءتهم.

- حسناً - قاطعه الضابط دونما حماس - دعنا نذهب للاستماع إلى أقوال المشتبه به.

* هل تريدون سيدي أن تستجوبوه في زنزانته، أم نحضره لكم إلى هنا؟

ألقى الضابط بنظره عبر النافذة، لم تخفت ضوضاء الكلب، ربما يخف صوت النباح على الأقل في داخل المبنى.

- في زنزانته.

أمسك دوجو بالحلقة الكبيرة التي كان يشبك فيها المفاتيح. وعندما قام بفتح الباب المؤدي إلى الزنزانات، اجتاحت المكتب نسمة من هواءٍ باردٍ، مشبعة برائحة كالتي للأقبية، لو لم تكن تطغى عليها رائحة نتن الأجساد والبراز. أضاء الممر نورٌ أبيضُ وبارد، منساباً على الظلمة نقطة فنقطة من نافذة مشبكة في طرفه الآخر، كان المكان في السابق ثكنة عسكرية، كل ما لزمه لتحويله إلى سجن، كان إضافة أقفال على البوابات.

من خلال الأبواب المواربة، أمكنت رؤية الزنزانات الفارغة. وفي نهاية الممر، كانت هناك واحدة مغلقة فتحها دوجو مفتعلاً الكثير من الضوضاء كمن يضرب الأرض بقدمه لإخافة الثعابين.

كان الرجل مستلقياً على واحدة من الدكتين الخشبيتين ورأسه

في مواجهة الحائط. لم يكن يتحرك، أراد دوجو إضفاء بعض الحماس وصرخ: «وقوف!».

أشار له الضابط أن يسكت وأمره بالخروج، وجلس على الدكة المقابلة يستجمع قواه، لا كرياضي في طور الإحماء، بل كمن يهم بالقيام بعمل روتيني، ولا يدري إن كانت لديه الطاقة الكافية للقيام به.

- صباح الخير سيد مورلاك - صَفَرَ وهو يحك جذر أنفه.

لم يتحرك الرجل، إنما اتضح من خلال تنفسه أنه لم يكن نائماً.

- أنا القومندان هوغ لانتييه دو غريز، قائد فصيل، سندردش قليلاً إن رغبت.

سمع دوجو هذه الجملة، وبوصوله المكتب، هزّ رأسه بأسف، فمنذ انتهاء الحرب، لم يعد شيء كما كان، وغدا القضاء العسكري متردداً وضعيفاً، كهذا القاضي الشاب الودود، سقى الله أياماً كانت فيها الإعدامات تجري دون رفة جفن!

جلس السجان وراء مكتبه وهو يشعر أنه أكثر استرخاءً دون أن يعرف السبب، فكل شيء قد تغير، لم يكن ذلك بفعل الحرارة، التي على العكس، بدت خانقة أكثر بعد التوغل في برودة الزنزانات، ولا العطش الذي قرر إطفاءه بإخراج زجاجة خلسة من تلك التي خبأها أسفل المكتب. في الواقع ما تغير كان الصمت: لم يعد الكلب ينبح.

بعد يومين من العذاب، كانت تلك أول لحظة سكون.

هرع إلى النافذة ليرى إن كان الحيوان لا يزال هناك، لم يلمحه في البداية، إلا أنه عندما مد رأسه، وجده في ظل الكنيسة، جاثماً على قائمتيه الخلفيتين، متنبهاً وإنما صامتاً.

منذ أن دخل القاضي إلى زنزانة صاحبه، كف الكلب عن النباح المستمر.

فتح القاضي العسكري الملف ووضعه في حضنه. كان مستنداً على الحشية الملاصقة للجدار، كما لو كان جالساً هناك منذ زمن، وكما لو أن لديه متسعاً كافياً من الوقت.

لم يتحرك السجين، ظل مولياً ظهره، ممدداً على الحشية القاسية، من المؤكد أنه لم يكن نائماً.

- جاك بيير مارسيل مورلاك، لفظها الضابط بلهجة ميكانيكية. من مواليد 25 يونيو 1891. - مسح بيده على شعره وهو يحسب - بالمحصلة، يكون عمرك ثمانٍ وعشرون عاماً. ثمانٍ وعشرون عاماً وشهران، بما أننا في شهر أغسطس.

من المرجح أنه لم يكن ينتظر جواباً، فتابع:

- تقيم رسمياً في مزرعة والديك، حيث ولدت، في بينييّ. غير بعيد من هنا على ما أعتقد. أُلحقت بالخدمة في 15 نوفمبر.

في 15 نوفمبر؟ كان يجب أن تعامل معاملة المعيل وأن تحصل بذلك على تأجيل.

كان للقاضي باع طويل في القيام بمقدمات كهذه، فهو يغربل بيانات السجل المدني، وعلى وجهه ترتسم أمارات الأسف، إذ أن الاختلافات في تواريخ وأماكن الولادة التي تميز الأشخاص، تلعب دوراً أساسياً من حيث أنها تحدد ما عليهم أن يكونوا. إلا أنها في الوقت ذاته، من السخف بحيث تُظهِر تلك الفوارق الطفيفة،

على نحو أفضل مما يفعله قيد النفوس، إلى أي حد يتمايز البشر فيما بينهم بفعل القليل من العوامل. وتؤلف هذه المعطيات (الاسم، تاريخ الميلاد...) كتلة غير واضحة، مصمتة ومجهولة. كتلة قامت الحرب بعجنها وإعطابها وحرقها. فلا أحد عاش تلك الحرب، وظل مؤمناً أن للفرد أية قيمة. ولذلك فإن العدالة المنوط تحقيقها الآن بلانتييه، تتطلب أن يقدِّم لها أفراداً لإدانتهم. ولهذا السبب، جمع لانتييه كل تلك المعلومات وحشرها في هذا الملف، كأزهار مجففة بين دفتي كتاب سميك.

- لقد تم فرزك في البداية إلى إدارة شامبان. لا يبدو أن الأمر كان صعباً. توريد الأعلاف إلى المزارع هو أمر تجيد القيام به، كما أنه ليس خطراً.

توقف الضابط لبرهة كي يرى ردة فعل المتهم، بقي جسد هذا الأخير الممدد قبالته ساكناً بلا حراك.

- ثم عيّنت مع أبناء وحدتك في جيش الشرق الذي توجه إلى تسالونيك في 16 يوليو، حسناً، على الأقل، ليس من المفترض أن تكون الحرارة قد أزعجتك! فلقد كان لديك الوقت الكافي للاعتياد عليها هناك.

مرت عربة كانت تصعد الطريق بصعوبة على طول نافذة الطابق السفلي مصدرة ضجيجاً صاخباً ثم ابتعدت.

- عليك أن تروي لي عن حملة البلقان، لم أفهم شيئاً، أردنا إحراج الأتراك في الدردنيل، إلا أنهم قاموا برمينا في البحر، أليس هذا ما حدث؟ ثم أطبقنا على تسالونيك ولعبنا لعبة القط والفأر مع اليونانيين الذين قرروا ألا يخوضوا الحرب إلى جانبنا. هل أنا مخطئ؟ بكل الأحوال، لطالما

اعتبرنا نحن الذين كنا على جبهة السوم[5]، أن أفراد جيش الشرق لم يكونوا جديين في القتال، بل مجرد باحثين عن مخبأ لتمضية الحرب بهدوء على الشاطئ.

كان لانتييه يعلم ما يفعله عندما يقوم على نحو مفاجئ باستعمال العبارات الدارجة وبالأخص عند توجيه بالإهانات. وكان لوجهه التعابير المُتعَبة نفسها. تلك الحركات المسرحية الصغيرة كانت جزءاً من التحقيق الروتيني. فهو يعرف الوتر الذي يلعب عليه لدى غريمه، كمزارع خبير بنقاط ضعف دابته. حرك السجين المستلقي قبالته قدماً، كانت تلك بادرة جيدة.

- على أية حال، فقد تفوقت.

أحسنت، 17 أغسطس، تنويه موقّع من القائد العام للجيش، ساراي: اضطلع العريف مورلاك بدور حاسم في الهجوم ضد القوات البلغارية والنمساوية. فكان في طليعة هذا الهجوم، وقام شخصياً بجرح تسعة أنفار من مشاة العدو قبيل إصابته في الرأس والكتف وسقوطه مغشياً عليه في أرض المعركة، وسحبه من قبل رفاقه إلى الخطوط الفرنسية خلال الليل. كان هذا العمل البطولي بداية للهجوم الساحق والنصر لقواتنا في منطقة تشيرنا.

عظيم! تهانينا.

فعلت هذه القراءة دون شك مفعولها، إذ لم يعد السجين يحاول

5- معركة السوم (بالفرنسية: Bataille de la Somme باتاي دي لا سوم) هي معركة بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى حدثت في الفترة 1 يوليو – 18 نوفمبر 1916 وانتهت بخسائر كبيرة للطرفين.

التظاهر بالنوم، فغيّر من وضعيته وهو لا يزال ممدداً، ربما للتغطية على كلمات الضابط .

- لا بد من أنها كانت شجاعة استثنائية كي تستحق لقاءها وسام فيلق الشرف. وسام فيلق الشرف! لعريف بسيط! لا أدري ما كانت عليه الأوضاع في جيش الشرق، إنما في فرنسا، أعتقد أنني سمعت عن اثنتين أو ثلاث فقط من هذه الحالات. لديك الكثير لتفتخر به. هل كنت فخوراً على وجه الخصوص سيد مورلاك؟

تململ السجين داخل أغطيته، على نحو ينبئ بأنه سرعان ما سينهض.

- لننتقل إلى الجرم الذي أوقفت بسببه، إنني أعجز عن تخيّل كيف يمكن لمن تقلّد وسام فيلق الشرف، بمثل تلك الظروف، أن يرتكب مع سابق التصميم، كل تلك التهم المنسوبة إليك. من المرجح أنك كنت بحالة من السكر سيد مورلاك؟ لقد هزّتنا الحرب جميعاً، قد يحدث أن تلاحقنا ذكرياتنا، ولكي نهرب منها، قد نشرب كأساً، كأساً زائداً. وهو ما يدفعنا إلى أن نرتكب أشياءَ ربما نندم عليها لاحقاً، هل كان الأمر كذلك؟ في هذه الحال، قدّم اعتذارك وعبّر عن توبتك الصادقة وسنأخذ بذلك.

في نهاية المطاف، استقام الرجل على الدكة قبالة القاضي. كان يتصبب عرقاً تحت بطانيته، محمر الخدين، أشعث الشعر. إلا أن نظرته لم تكن غائمة. جلس على حافة السرير، تتدلى ساقاه العاريتان. مر بيده على عنقه مع تكشيرة تمددت. ثم حدّق في القاضي، الذي كان لا يزال جالساً، والملف في حضنه، وابتسم بتثاقل.

- لا، قال الرجل. لم أكن في حالة سكر. كما أنني لست نادماً.

- 2 -

تحدث الرجل بنبرة خفيضة، صوته كان مكتوماً إلى حد كان من المستحيل سماعه من الخارج. ومع ذلك، فإن الكلب، في الساحة، بدأ بالعواء للتو. نظر القاضي بشكل آلي، نحو الباب.

- على الأقل هناك من يقف إلى جانبك. أليس هناك من أحد آخر يقف في صفك، أيها العزيف؟ شخص يفضّل أن تخرج من هذا الوضع المؤسف، وأن يراك حراً؟

* أكرر، أجاب مورلاك. تلك كانت أفعالي، وأنا مسؤول عنها، ولا أرى سبباً للاعتذار.

هو أيضاً، دون شك، هزّته الحرب. شيء ما في صوته، يقول أنه صادق بشكل مطلق، كما لو أن يقين الموت القريب، الذي خبره يوماً بيوم على الجبهة، أذاب فيه كل قشور الكذب، كل ما ترسّبه التلونات وتجارب الحياة ومعاشرة الآخرين، على جوهر الحقيقة لدى الإنسان العادي. كان التعب الذي يجرد المرء من كل قوة أو رغبة بقول الأمور غير الحقيقية أو الإيمان بها، هو القاسم المشترك بين الرجلين، ومن بين تلك الأمور

غير الحقيقية، تلك المتعلقة بالمستقبل والسعادة والأمل، والتي كان من المستحيل إعادة إحيائها، لأنها دُمرت في خضم الواقع القميء للحرب. ولم يبقَ هناك سوى جمل حزينة للتعبير، إلى جانب كمٍّ هائل من اليأس.

- هل يتبعك منذ فترة طويلة، هذا الكلب؟ حكّ مورلاك ذراعه. كان يرتدي قميصاً بلا أكمام يبرز عضلاته.

لم يكن في الواقع ضخماً جداً. كان متوسط الحجم، ينحسر شعره البني عن جبينه، وعيناه فاتحتان. كان رجلاً من الريف، إنّما بدا مُلهَماً، يتمتع بنظرة عميقة كالتي للأنبياء أو القديسين الذين يشهدون التجليات الإلهية.

- منذ البداية.

* ماذا تعني؟

بدأ لانتيه بكتابة محضر الاستجواب. كان عليه الاستعانة بمفردات خاصة لهذا الغرض، إلا أنه لم يكن يتحلى بالشغف الكافي للقيام بذلك.

- تبعني عندما جاء الدرك لتجنيدي في الحرب.

* اروِ لي كيف حصل ذلك.

- شرط أن أدخن.

مدّ القاضي يده إلى جيب سترته وأخرج رزمة من السجائر. أشعل مورلاك واحدة منها بالقداحة اليدوية التي أعطاه إياها الضابط. ونفث الدخان من أنفه، كثورٍ غاضب.

- كنا في نهاية الخريف، كما تعلم، فهو مدوّن في أوراقك، وكنا لا نزال نحرث الأرض. منذ زمن طويل، لم يعد والدي قادراً على مواكبة

الحصان للحراثة، كما كان عليَّ حراثة حقول الجيران، لأن ابنهم قد ذهب مع طلائع المجندين، حضر الدرك وقت الظهيرة، رأيتهم يصعدون الدرب المحفوف بأشجار الزيزفون ففهمت ما يرمون إليه. تناقشت ووالدي حول ما يجب فعله، كنت مع فكرة الاختباء، إلا أنهم سرعان ما سيعرفون، كما أن والدي قال أنهم سيأخذونني عاجلاً أم آجلاً، فذهبت برفقتهم.

* هل كنت الوحيد الذي كان عليهم إحضاره؟

- كلا بالطبع، كان هناك فعلياً ثلاثة مجندين آخرين. كنت أعرفهم بالشكل. جعلني الدرك أصعد إلى العربة، وذهبنا لأخذ الثلاثة الآخرين.

* والكلب؟

- تبعنا.

وكأن الحيوان سمعهم، فكف عن العواء عندما دار الحديث حوله، وهو الذي لم يتوقف عن النباح منذ أن استيقظ سيده.

- لم يكن الوحيد، الجميع كان لديهم كلب تبعهم في بادئ الأمر. كان الدرك يضحكون، أعتقد أنهم تعمدوا جعل الكلاب تركض وراء العربة، على سبيل التهريج، كما لو أننا ذاهبون في رحلة صيد. وعلى صعيد آخر، فإن من جئنا لإحضارهم، مضوا برفقتنا دون أية ضجة. كان مورلاك يسرد الوقائع باسمَ المحيا، إلا أن حزناً كان في عينيه، وكذلك كان الضابط قبالته، مظهراً نفس الابتهاج الزائف.

* هل تملكه منذ فترة طويلة، هذا الكلب؟

- أهداه إلي بعض الأصدقاء.

كتب القاضي كل شيء بأمانة. كان من المضحك رؤيته يسجل تفاصيل قصة الكلب بدقة. إنما في الحقيقة، كان لذلك الحيوان دور مهم في القضية المكلف بها.

* ما هو نوعه؟

- كانت الأم كلبة صيد، على درجة كافية من نقاء العرق على ما أعتقد. أما الأب، فلم نكن متأكدين منه قطعاً. يبدو أن كل الذكور في الجوار قد مروا من هناك.

لم يكن هنالك، أي تهتك في تلك العبارة، وإنما الاشمئزاز، من الغريب كيف جعلت الحرب من الأمور الحميمية، أمراً لا يطاق، كما لو أن خليط الأجناس وأسرار الأجيال تلاقت مع عربدة الدم والموت، بذلك الخليط من الدناءة الذي يسري في شظايا القذائف.

* باختصار، قاطعه الضابط، تبعك الكلب، ثم ماذا؟

- ثم واصل اللحاق بي. كان أكثر ذكاءً من سواه على ما أعتقد. قاموا بتجميعنا في نيفير، ومن هناك، استقللنا القطار إلى الشرق. بقيت معظم الكلاب على رصيف المحطة، إلا أن هذا الكلب استجمع قواه، وعندما انطلق القطار، قفز إلى متنه.

* ألم يطرده المساعدون؟

- لقد وجدوه مسلياً، فلو كان هنالك ثلاثون منه، لقاموا حتماً بطردهم، ولكن لم يكن هناك غيره، لم يثر حفيظة أحد، على العكس، فقد أصبح رمزاً للفوج. هكذا على الأقل كانوا يدعونه.

أصبحا الآن وجهاً لوجه، كل منهم على حشيته، تفصلهما الفسحة

الضيقة للزنزانة. سادت أجواء الحرب نوعاً ما في المعتقل. فقد كان هنالك متسع من الوقت. وسارت الحياة ببطء، إنما كان يمكن لقذيفة أن تنهي كل شيء.

* لا شك بأن الأمر قد راق لك، هل كنت متعلقاً به، أعني الكلب؟

بحث مورلاك بعناية في علبة السجائر. أخرج واحدة نصف مكسورة، كسرها نصفين، وأشعل أحد طرفيها.

- قد تجد الأمر غريباً، خصوصاً مع ما قمت به، ولكنني لا أملك مشاعر خاصة تجاه الكلاب. لا أحب أذية الحيوانات. أقوم برعايتها عند الضرورة. إنما عند الضرورة أيضاً، أقتلها، كالأرانب والأغنام على سبيل المثال. فمن الممكن أن أصطحب كلباً إلى الصيد أو إلى الحقول لرعاية الأبقار. إنما أن أقوم بمداعبته، فلست من هذا النوع.

* ألم تكن مسروراً لرؤيته يتبعك؟

- على العكس، في الواقع لقد شعرت بالانزعاج، لم أكن أرغب في لفت الانتباه إليَّ، خلال قصة الحرب تلك. وخصوصاً في البداية، لم أكن أعلم ما ستؤول إليه الأمور، ولكنني فكرت في أن عليَّ في وقت ما أن أهرب خلسة، ولكن بوجود كلب...

* هل كنت تنوي الفرار؟

لم يسأل لانتييه سؤاله كقاضي تحقيق، وإنما كضابطٍ يظن أنه يعرف مرؤوسيه، وأنه اكتشف لدى أحدهم خصالاً لم يكن يتوقعها.

- أنت، لقد كنت بالطبع تعرف ما هي الحرب. أما أنا فلا. كل ما كنت أراه عندما بدأت، هي الحقول التي بقيت في عهدة أمي وأختي ولم

تكونا قادرتين على زراعتها، وأكوام القش التي لم تجمع بعد. ففكرت إن لم تكن هناك من حاجة ماسة إليَّ في الجيش، أن أحاول العودة إلى حيث أكون ذا فائدة، أفهمت ما قصدته؟

كان الضابط ابن المدينة، فقد ولد وعاش في باريس، وقد لاحظ دائماً مع مرؤوسيه، إلى أي حد يختلف أبناء الريف عن أبناء المدينة في نظرتهم إلى المكان الذي جاؤوا منه، فلابن المدينة، هو يعني الملذات والراحة وحياة الدعة بالمختصر، أما لابن الريف، فهو الأرض والعمل، ومعركة أخرى.

* هل كان هناك كلاب أخرى في موكبكم، غير كلبك؟

- لم يكن هناك أي منها في القطار. ولكننا عندما وصلنا إلى ريمس، وجدنا عدداً لا بأس به منها.

* ألم يقل الضباط شيئاً؟

- لم يكن هنالك ما يقال. كانت تلك الكلاب تتدبر أمرها بنفسها. لا أعلم إن كانت تنقب في القمامة ليلاً، أم أن البعض كان يلقي إليها بالبقايا، ربما الأمران معاً، على كل حال، لم تكن هناك حاجة للاهتمام بها...

* وبعد ذلك، ذهبت إلى الجبهة؟

- قضيت ستة أشهر على خط الإمدادات. لم نكن في الخط الأمامي ولكن يحصل أحياناً أن نقترب كثيراً، وكانت القذائف في كثير من الأحيان تتسبب بأضرارٍ.

* وهل كان الكلب معك دائماً؟

- دائماً.

* ألم يكن الأمر سخيفاً؟

- لم يكن كلباً سخيفاً البتة. فحتى في البقاع الأكثر دماراً، كان يجد دائماً ما يأكله. والأهم، أنه عرف كيف يتصرف مع أصحاب الرتب. فأغلب الكلاب قد واجهت مشاكل في نهاية المطاف، حتى أن بعضها لقي حتفه بطلقة بندقية لأنه كان يسرق من الاحتياطيات. لا أدري أين خدمت، ولكنني أظن أنك رأيت ذلك أيضاً.

في الحوارات التي تجري في الخنادق، لا تعود للرتب أهمية تذكر، وما أشبه ذلك بلعبة ورق، عندما يتحدى عامل النظافة كاتب العدل، دون أن يبدو أن في الأمر إهانة. وفي هذه الزنزانة، بقي القاضي قاضياً، حيث كان يكتب تقريره بعناية، إلا أن الاستجواب كان محادثة بين زميلين حولهما الموت القريب إلى ندّين.

* قضيت معظم فترة الحرب مع الإنكليز في السوم، قال القاضي.

- هل كان هناك كلاب؟

* بضعة منها، عندما قاموا بتسليمي قضيتك، فكرت مباشرة في العديد من مرؤوسيّ الذين كانوا متعلقين بحيواناتهم إلى درجة أنهم لم يكونوا قادرين على احتمال الحرب إلا بوجودها. وانتهوا إلى اعتبارها رفاق النضال، وتوائم الروح.

لكي أكون صريحاً معك وبالرغم من الاستفزازات اللفظية التي تفوهت بها، فإنني أنوي كتابة تقريري ضمن هذا السياق. لقد أنشأتَ في الأساس، نوعاً من العلاقات الرفاقية مع هذا الكلب. أوضح لنا ذلك، وسنعفو عنك، كن متأكداً.

استقام مورلاك، وقذف سيجارته بعنف إلى أسفل جدار الزنزانة. كان يبدو عليه الغضب. فالحرب التي حرمته من التعبير عن مشاعر الفرح والابتهاج، طورت فيه، بشكل ملحوظ، القدرة على التعبير عن الغضب وحتى الحقد. كان الضابط على دراية بردود أفعال المحاربين تلك، ولكنه لم يتوقعها في مثل هذا الموقف، وقبل كل شيء، لم يكن قد انتهى إلى معرفة السبب.

- لا أريد أن تكتب ذلك، هل تسمع! صرخ مورلاك. إنه ببساطة غير صحيح، ولن أوقع أبداً على أقوال كهذه.

* اهدأ، ماذا دهاك؟ قالها لانتييه، وزفر زفرة تشي بمزاجه السيئ.

- لم أفعل ما فعلت لأنني كنت أحب كلبي. بل على العكس.

* ألم تكن تحبه؟

- سواء أحببته أم لا، فليست تلك القضية. لم أفعل ما فعلته من أجله، مفهوم؟

* من أجل من إذاً؟

- من أجل من؟ من أجلك، من أجل أصحاب الرتب، من أجل رجال السياسة، والمستفيدين وكل الحمقى الذين يتبعونهم. من أجل الذين يرسلون الآخرين إلى الحرب، ومن يذهبون إليها بأنفسهم، فعلت ذلك من أجل الذين يؤمنون بهذا الهراء: البطولة! الشجاعة! الوطنية!...

قال تلك الكلمات الأخيرة وهو ينهض واقفاً. فسقط الغطاء على الأرض، وكان يرتدي سروالاً وقميصاً داخليين، صاح، ورمى الضابط بنظرة شريرة. بدا سخيفاً، مثيراً للشفقة ومقلقاً في آن معاً. إذ قد يؤدي

به الغضب إلى القيام بأفعال متطرفة، لا أحد بإمكانه ردعه عنها. وبعد لحظة من الذهول، استحضر لانتيه غريزة الضابط، فأطبق الملف بصوت مسموع، ونهض واقفاً. وبكل ما يتمتع به شخص يرتدي ثياباً، علاوة عن كونها عسكرية، من نفوذ على شخص عارٍ، هتف بصوت عالٍ:

* اهدأ مورلاك! لقد تماديت كثيراً، ولا تسئ فهم طيبتي، فإن لها حدوداً.

- أنت أردت أن أتكلم، وهأنذا.

* وما قلته كان غير مقبول. وقد فاقم من وضعك. فعلاوة عن أنك لم تنجح بتقديم عذر مخفف للجرم الذي أوصلك إلى هنا، قمت بتوجيه إهانات لضابط وشتائم للأمة.

- لطالما قدمت، لهذه الأمة، الكثير من التضحيات. مما يمنحني الحق في أن أقول لها بعض الحقائق. ولن يؤثر ذلك على وحدة ترابها.

وبكل ما هو عليه من مظهر أشعث، أخذ يقارع القاضي حجة بحجة.

- هذا ما أسفرت عنه أربع سنوات من الحرب: رجالٌ بلا أي خوف، عاشوا الكثير من الفظاعات، حتى أن لا شيء ولا أحد يستطيع أن يرهبهم. ولحسن الحظ، لم يعد هناك الكثير منهم.

فضّل القاضي أن يوقف التحقيق بدلاً من الاستمرار بتلك المناقشة التي قوضت السلطة التي يمثلها.

* استجمع قواك واخلد إلى الراحة، يا صاح. سنكتفي بهذا القدر لليوم.

كان السجان دوجو ، يقترب مع سماع ضوضاء مدوية. ظهر من

خلف الباب، ملقياً بنظرة حاقدة على مورلاك، ثم رافق الضابط إلى الخارج حيث سمعت جلجلة مفاتيحه وهي ترتطم بالأبواب المعدنية. في الخارج، كان الكلب قد بدأ بالعواء.

*

تقع مكاتب لانتييه دو غريز في مدينة بورج في بناء لويس الرابع عشر، وسط المدينة، وكان الأهالي يدعونها، ثكنة كوندي. كان راضياً عن وضعه بانتظار ما هو أفضل. بقيت زوجته مع طفليهما في باريس، وكان يأمل أن يتم نقله كي ينضم إليهم. وطالما أنه لم ينتهِ من التحقيق في قضية مورلاك، فلم تكن، لسوء الحظ، عودته، سواءً إلى باريس أو بورج، أمراً وارداً. كان يقيم خلال فترة التحقيق في فندق متواضع للتجار المسافرين، بالقرب من المحطة، حيث كان السرير النحاسي يصر والمناشف مهترئة حتى حوافها. وحده كان الإفطار، أفضل ما يقدمه هذا الفندق. فكانت مالكته، وهي أرملة حرب، تمتلك وأختها مزرعة على مشارف المدينة. ومنها يأتي البيض والزبدة والحليب الطازج. كما كانت تخبز بنفسها وتصنع المربيات.

الساعة السابعة والنصف صباحاً، ينبئ الطقس بنهار حار، يتناول القاضي إفطاره بالقرب من النافذة المفتوحة على مصراعيها، كان يفكر في الشيطان الذي يمثّله هذا الرجل وكلبه، والحق يقال أنه لم يتوقف عن التفكير بهما منذ عشية يوم أمس. كان يجب أن يتركه بطريقة أكثر فظاظة وألا يعرض نفسه للإهانة، بالنظر إلى ما يمثّله. إلا أنه كان يحس في أعماقه بانجذاب نحو تلك الشخصية البائسة والعنيدة.

خلال هذه الحرب التي بلا نهاية، اختبر لانتييه كل أنواع المشاعر.

فبدأ في شبابه كمثالي من طبقته الاجتماعية البرجوازية، على الرغم من لقبه الذي يضعه في طبقة النبلاء، كان يقدس الوطن واضعاً إياه في المقدمة، ومعه جميع الأفكار الكبرى كالشرف والعائلة والتقاليد. مؤمناً أن على الأفراد الخضوع لها، بما في ذلك مصالحهم الشخصية الرثة، إلى أن احتك بأولئك الأفراد في الخنادق، وكان أحياناً في صفهم. لدرجة أنه سأل نفسه في مناسبة أو مناسبتين، ما إن كانت معاناتهم أجدر بالاحترام من القيم التي تمت تعبئتهم باسمها.

وبعد الهدنة، عندما تم تعيينه قاضياً عسكرياً، رأى لانتييه أنها مصادفة موفقة. ففي المكتب، كان ثمة شعور أنه مستعد لهذه العملية الصعبة: حماية المؤسسة العسكرية، ومصالح الأمة من جهة، وأيضاً فهم نقاط ضعف البشر. إلا أن هذا السجين كان مختلفاً. فهو ينتمي لكلتا الحالتين: كان بطلاً، لدفاعه عن الأمة، وفي الوقت نفسه، كان ينبذها.

كل صباح، يجول القاضي في المدينة. ويتوقف لدى مقهى أمام كنيسة الدير، ليرتب الملاحظات التي كان قد جمعها عشية اليوم السابق في السجن. لم يكن يخطط للقاء مورلاك قبل عصر ذلك اليوم، كان يجب أن يمنحه الوقت الكافي للهدوء والتفكير، حتى لو لم يكن يعتقد بضرورة ذلك، وعندما دقت الساعة معلنة انتصاف النهار، كان هناك هدوء عام في الشوارع، عبر لانتييه المدينة لتناول الغداء لدى مطعم كان يتردد عليه، بالقرب من السوق المغطى، كانت مصاريع نوافذ المنازل جميعها مغلقة بغية الحفاظ على برودة الغرف. ومن خلف الأبواب الحديدية، كان بإمكانه أن يسمع جلبة الجلي وأصوات النساء الآتية من الحديقة حيث تتم التحضيرات لتناول الطعام في الخارج.

كان المطعم خالياً، باستثناء طاولة في الخلفية شغلها رجل عجوز. جلس لانتييه دو غريز على الطرف الآخر للمقعد، من جانب النافذة، كانت الغرفة عالية السقف بزينة جصية مصفرّة بفعل ما تراكم على جدرانها من دهون، ومرايا زئبقية متكسرة. أنزل صاحب المطعم المظلة القماشية على الشرفة، وفتح كل ما يمكنه أن يفتح من أبواب ونوافذ وكوى من أجل توفير مجرى هواء. إلا أن البخار المحمل برائحة القلي، والمتصاعد من المطابخ، أحال كل تلك الجهود هباءً، فالجو كان حاراً جداً.

كان الطعام المقدّم، هو نفسه طوال العام، ويتكون في الأساس من أطباق ثقيلة تناسب أيام المطر، طلب لانتييه يخنة الأرنب آملاً، دون أن يكون متأكداً، ألا يكون المرق دسماً جداً.

طلب صحيفة، فأحضر له صاحب المطعم واحدة تحمل تاريخ اليوم السابق. قرأ العناوين التي كانت في معظمها تدور حول براعة الطيار الفذ شارل غودفري، الذي مر بطائرته من تحت قوس النصر.

- أنت هنا من أجل مورلاك أليس كذلك؟

نظر القاضي إلى الرجل العجوز الذي قام بسؤاله، نهض هذا الأخير قليلاً عن المقعد محيياً.

* نوبير سينيبليه، مدعٍ.

- تشرفنا، القومندان لانتييه دو غريز.

كان هناك مدّعٍ في قسمه عندما كان برتبة ملازم. وكان شخصاً حريصاً على الشكليات ونزقاً دائم الاعتراض، وعلى استعداد دائم

لخوض جدال بشأن تفسير اللوائح، بغية تطبيق أقل قدر ممكن منها. ومع ذلك، ففي الهجوم الأول، خرج من الخندق أمام الآخرين وقتل على مسافة مترين من المتراس.

* في الحقيقة جئت للنظر بقضية مورلاك، أتعرفه؟

- للأسف، حضرة القومندان، فبحكم وظيفتي وسني، أعرف الجميع في هذه البلدة، وحتى في هذه المنطقة. أضف إلى أننا في العائلة، نمارس هذه الوظيفة منذ خمسة أجيال.

أطرق لانتييه، إلّا أنه بوصول الأرنب الذي طلبه، والأبخرة المتصاعدة منه، انهمك في إخراج القطع من القصعة دون إضافة الكثير من المرق.

* عندما رأيته وكلبه في الرابع عشر من يونيو[6] كنت أبعد ما يمكن عن الشك... قام المدعي بإيماءة حذرة، قد تفسر على أنها تعبير عن السخط أو ابتسامة صريحة، بحسب ما يمليه تحليل المتلقي، أما لانتييه الذي كان منهمكاً بأرنبه، فلم يسعفه كثيراً في فهم مرامه.

- وماذا ظننت؟ ضاقت عينا القاضي وهو ينظر إلى محدّثه من الأسفل.

* فوجئت كثيراً. لم أكن أتوقع منه هذا.

- ماذا تعرف عن مورلاك؟

* لم تكن له قبل الحرب أية مشاكل. معرفتي بعائلته سطحية. كان الأب مزارعاً تقياً ومجدّاً للغاية. كان لديه وزوجته أحد عشر طفلاً، لم يبقَ منهم سوى اثنين على قيد الحياة، هذا الذي في السجن الآن ويدعى جاك،

6- ذكرى الثورة الفرنسية.

وماري، الشقيقة الصغرى، أصغر بأربع سنوات فقط. كانا بائسين، لرؤيتهما هكذا. ولكنهما كانا الناجيان الوحيدان.

- هل حصل على تعليم؟

* قليلاً، ففي تلك البقاع، ليس هناك من حاجة إلى التعليم، خصوصاً عندما لا يكون هناك العديد من الأبناء في الأسرة. قام الكاهن بتلقينه بعض الدروس، لمجرد أن يتعلم القراءة والحساب. ثم عاد إلى الحقول لمساعدة والده.

هزّ لانتييه رأسه، إنما في الواقع، كان منشغلاً بإخراج شظايا العظام التي علقت باللحم من فمه. لم يكن يرغب في التفكير بأن الحيوان الذي يأكله، قد تم قتله. ولكنه لم يستطع منع نفسه.

- أليس لديه أصدقاء؟ أو أية توجهات سياسية؟

* كان على معرفة بعدد من الشباب، يلتقيهم أيام السوق، وأحياناً في الحفلات الراقصة، بالرغم من أنه لم يكن يتردد عليها كثيراً. أما فيما يخص السياسة، فالأمور هادئة هنا كما تعلم. يقوم الناس بالتصويت كما يقول لهم رجال الدين. ولا يخلو الأمر من حفنة من المحرضين، ومعظمهم من المعلمين وعمال السكك الحديدية، الذين يجتمعون في مقهى بجانب المحطة. على مقربة من فندقك، هناك.

- وهل تعلم في أي فندق أنزل؟

هزّ المدعي كتفيه، ولم يجب بشيء، فيما عدا ابتسامة.

- وماذا عنه بعد أن عاد من الحرب؟

* لم يكن أحد ليلاحظه تقريباً، باستثناء ذلك اليوم المشؤوم...

كان يقيم في شقة مفروشة. فمنذ أن تزوجت شقيقته من شخص لم يكن يكنّ له الكثير من الود، لم تطأ قدماه المزرعة. إنما ليس ذلك بالأمر المستغرب. فالعديد من المحاربين القدماء باتوا انعزاليين غريبي الأطوار. اعتبر الضابط هذا التعليق موجهاً ضده، فهو أيضاً كان من قدامى المحاربين، ولو فكر في الأمر ملياً، لوجد أنه أيضاً لم يعد يرى الكثير من الناس، الذين ربما سيعتبرونه غريب الأطوار.

- هل له زوجة؟

* الأمر أشبه بلغز. لم يسبق له الارتباط. لكن ثمة فتاة في قرية صغيرة في الجوار، يقال أنها كانت صديقته الحميمة. أنت تعلم، فالناس يتكلمون، إنما لا أحد يدرك حقيقة الأمر.

- ما اسمها؟

* فالنتين. وهي تعيش على أطراف قرية فاليناي.

- هل لديها عائلة؟

* لا، فجميعهم لقوا حتفهم خلال وباء الحصبة. فورثت ملكية صغيرة قامت بتأجيرها، تعود عليها بالقليل، ولهذا فهي تصنع سلال الخوص. آه، لقد نسيت أن أقول إن لديها طفلاً.

- كم عمره؟

* ثلاث سنوات على ما أظن.

- هل هو ابن مورلاك؟

* لا أحد يعلم.

-ولكنه كان في الحرب...

* قد عاد في إجازة.

كان لانتييه على وشك الإجهاز على أرنبه، كان يتصبب عرقاً بفعل الحرارة والمرق، حلّ أزرار سترته وجفف عرقه. فقد كانت بانتظاره ساعات صعاب. ومن الأفضل له الذهاب للاستلقاء والنوم.

لم يكن لدى المدعي الكثير ليخبر به القاضي، لكنه أراد مقابلاً لإدلائه بمعلومات تتعلق بأسرار الوظيفة، وقد حصل على ذلك، فدفع القاضي الحساب وهو يتثاءب، ومضى ليرتاح دون أن يلبس سترته.

- 3 -

إلى أن استطاع لانتييه هضم يخنة الأرنب كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة بعد الظهر، خرج من الفندق وهو لا يزال مشوشاً، قاصداً السجن، بات يعرف البلدة بالقدر الذي يتيح له أن يسلك طريقاً مختصرة إلى الثكنة دون إضاعة الوقت في المناورات بين الشوارع. انتابه شعور بأن الكلب لم يعد ينبح، ذلك لأنه أتى من شارع آخر، خلف المبنى. ولكن حالما انعطف عند الزاوية، سمعه، بدا وكأن الحيوان لم يعد يجأر كالسابق، ربما بسبب التعب. أخبره السجان بأن الكلب لم يصمت خلال ثلاثة أيام إلا لمرة واحدة، عندما زار القاضي البلدة أمس.

- هل كان يعوي في الليل أيضاً؟

* في الليل أيضاً سيدي، فرك دوجو عينيه المتفختين من قلة النوم.

- ولم يحتجّ أحد من سكان الحي؟

* أولاً، لا يقطن في هذا الحي الكثير من السكان. ثم أنني أعتقد، حاشاكم، سيدي القومندان، أن الناس هنا لا ينظرون إلى الجيش بعين الاستحسان. بالتأكيد، يقولون إنهم فخورون بالضباط والجنود. إنما لا

يغيب عن بالهم أن رجال الدرك يحضرون لأخذ أبنائهم من الحقول، وأن الضباط يطلقون النار على الفارين. ولتعلموا حضرتكم، أن هذا السجن كان لما يقارب الأربع سنوات، يغص بالرجال الذين تمت إحالتهم إلى المحاكمة العسكرية لا لشيء سوى أنهم أرادوا التهرب من الخدمة.

- هل يعني كلامك أن الناس هنا تقف في صف مورلاك هذا؟

* ليس لشخصه بالتحديد، فكما تعلمون، هو السجين الأخير، كما أن قصة الكلب، استرعت تعاطف الناس، الليلة الماضية لمحت ظلالاً تتسلل خلسة لتقدم للحيوان ما يأكله.

أُدخِل الضابط عند مورلاك الذي لم يكن هذه المرة نائماً. كان مرتدياً ثيابه يقرأ، وهو جالس على الأرض، مستغلاً شعاع الشمس الذي ينساب مغبرّاً عبر الزنزانة.

- تبدو وكأنك هدأت، سيكون في وسعنا أن نتابع.

جلس لانتييه في نفس المكان الذي جلس فيه في اليوم السابق، على إحدى الدكّتين.

- اجلس قبالتي لو سمحت.

نهض السجين ببطء واضعاً كتابه على حافة الدكة واتخذ مكانه بملابسه المدنية، لم تعد له هيئة مجانين المصح.

- ماذا تقرأ؟ هل بوسعي أن أرى؟

انحنى القاضي إلى الأمام ليلتقطه، كان كتاباً تآكلت زواياه واهترأت أطراف صفحاته حتى بدا وكأن العديد من الأيدي قد تناقلته كما أنه قد تعرض للبلل مراراً.

- فيكتور هوغو. هان إيسلندا.

رفع لانتيه ناظريه محدّقاً في الفلاح الصغير العنيد الماثل أمامه. ظن أنه لمح ابتسامةً تعلو شفتيه. لكنه سرعان ما عاد إلى تجهمه السابق ونظراته الثابتة.

- أظن أنك لم تذهب إلى المدرسة.

* تلك هي مدرستي - قالها مورلاك، مشيراً بذقنه إلى الكتاب - والحرب أيضاً.

وضع القاضي الكتاب جانباً وكتب مذكرة في دفتر ملاحظاته، لم يكن ممتناً لمواصلة التحقيق على تلك الخلفية. بالنسبة إلى الأدب، فقد كان يحب الكتاب الإغريق وشيشرون، باسكال والأدباء الكلاسيكيين. أما المعاصرين، فلم يقرأ إلا لمن مجدوا الوطن، بارّي بشكل خاص. بالنسبة إليه، كان يجلّ كل ما يمجد الملكية والإمبراطورية، بعبارة أخرى، السلطة. ويحتقر الجمهورية التي كان فيكتور هوغو شاعرها.

- دعنا نبدأ من حيث انتهينا، قال لانتييه مستعيناً بملاحظاته. كنت في شامبان. هل كان لديك مأذونية خلال الأشهر الستة التي أمضيتها هناك؟

* نعم.

- وجئت إلى هنا؟

* نعم.

- مع كلبك؟

*كلا، لقد تركته هناك، قام الشباب بالاهتمام به.

-ثم فرزك إلى جيش الشرق، وهنا، قام باللحاق بك.

* نزل فوجنا في البداية إلى طولون بالقطار. كان الكلب معنا. لكنني كنت على يقين من أنه لن يذهب أبعد من ذلك. طالما كنا في المعسكرات، فلا بأس بذلك بالنسبة إليه. ولكن الأمر كان مختلفاً في الميناء. ففي مستودع الأسلحة، كان مشاة البحرية يلاحقون الحيوانات ولا يترددون في إطلاق النار عليها. ومنذ اليوم الثاني على رصيف الميناء، كان الكلب قد اختفى.

- هل أبحرت على متن سفينة حربية؟

* كلا، على متن سفينة بضائع مصادرة. كان اسمها: «مدينة وهران». عبارة عن حوض قديم وصدئ، استخدمت للنقل بين المستعمرات قبل الحرب، بقينا داخلها لأربعة أيام قبل الإبحار، نستنشق روائح زيت النخيل وروث الحيوانات، إذ كان هناك حوالي الخمسين حصاناً في العنابر من أجل الضباط. أصيب الجميع بالغثيان، حتى قبل أن ننزل إلى عرض البحر.

- وهل كان الكلب على متن السفينة؟

* هذا ما لم نعرفه إلا لاحقاً. فمن المذهل أن يفهم الكلب، بأنه طالما كنا على الرصيف، فليس عليه أن يظهر. ولم يخرج من مخبئه إلا في اليوم الثاني للإبحار.

- ألم يرمه الضباط في الماء؟

* الضباط، لم يرهم أحد، غمغم مورلاك مستعيداً تلك النظرة الشريرة التي حدج بها القاضي.

* كانوا في القمرة، مع القبطان، ربما لكي لا يراهم أحد وهم يتقيؤون.

- وماذا عن صف الضباط؟

* لقد قلت لك إنه كان ذكياً، هذا الكلب. فعندما ظهر، كان يحمل في فمه جرذاً. أربعة أيامٍ كانت وقتاً كافياً لإدراك كم من الحشرات والآفات كانت على ظهر السفينة. لهذا سرّ الجميع لرؤيته وقد أتى ليقوم ببعض التنظيفات في العنابر.

- وأصبح كلب الفوج؟

* كلا، لأنهم في ذلك الحين لم يكونوا يعتبرونه كذلك. لقد كان دائماً يتصرف على أنه كلبي، يرقد عند قدميَّ، وينام في جواري، وكان يزأر إن اقترب أحد بسوء مني.

كان هناك شيء غريب في اللهجة التي تكلم بها مورلاك، فقد تحدث بحرية ويسر عن كلبه، لكن دونما حرارة، بدلاً من ذلك، كانت هناك نبرة ازدراء أو أسف. وكأنه يدين بقسوة الخصالِ التي يتحلى بها.

- هل منحته اسماً؟

* لست أنا، الآخرون فعلوا، عندما قفز إلى القطار، قام الشباب بإطلاق اسم غليوم عليه، تيمناً بالقيصر.

- مفهوم، قالها لانتييه منزعجاً قليلاً.

دوّن لانتييه اسم الكلب، ملاحظاً في فسحة السكون هذه، أن الكلب صمت من جديد.

-كيف جرت الأمور في تسالونيك بالنسبة إلى الكلب؟

* أليس معك لفافة تبغ؟

احتاط القاضي هذه المرة للأمر، فقد تزوّد برزمة من التبغ وأوراق اللف. كانت أصابع مورلاك منشغلة باللف ككل العساكر الذين يتقنون هذه العملية. إلا أنه تعمد الإبطاء والمماطلة، فهدفه الأول كان تمرير الوقت.

- تسالونيك - تابع دون أن يرفع ناظريه عمّا يقوم به - كانت مكاناً غريباً. صنع لفافة سميكة عجنها بين أصابعه المسودّة بفعل العمل اليدوي.

* لم أرَ قط ذلك العدد الهائل من الناس المختلفين. فرنسيين وإنجليز وإيطاليين ويونان وصرب وسنغاليين، وفيتناميين وأرمن وألبان وأتراك.

- لكن قيادة الحملة كانت بيد جنرال فرنسي، أليس كذلك؟

* قيادة! قيادة ماذا بحق السماء؟ إن أحداً لم يكن يتكلم اللغة نفسها، أو يعرف ما عليه أن يفعل أو إلى أين عليه أن يتوجه. إلا أن أسوأ ما في الأمر كان الميناء، لم يكن وجود كلب ليسترعي القلق. حتى أنها كانت الجنة بالنسبة إليه، أكوام من القمامة على الأرصفة. جيف لجميع أنواع الحيوانات، تتحلل في الشمس، أناس يتناولون طعامهم جلوساً على الأرض، ملقين بالعظام والقشور خلفهم: لم يكن ثمة حاجة حتى إلى الركض خلف الجرذان.

- ألم تبقَ في الميناء؟

* بلى، لبضعة أيام، الوقت الذي استغرقه الإنزال والتفريغ بواسطة رافعات قديمة، تتعطل باستمرار. كان الضباط يتحركون جيئة وذهاباً

على صهوات جيادهم. والأركان ترسل أوامر، وأوامر معاكسة، لم يكن أحد قادراً على تفسيرها.

- وبعد ذلك تم تعيينك ضمن مدينة تسالونيك؟

* أتظن ذلك! لقد جعلونا نسير في عرض عسكري في المدينة مع الموسيقا والأعلام، كنا مبتهجين، فقد كانت مدينة جميلة، أو كانت كذلك على الأقل، أحياء وسط المدينة، بشوارعها الواسعة المشجرة بالنخيل والمحفوفة بالأشجار، ولكن بعد عبورنا الضواحي القذرة، متوجهين شمالاً، وصلنا في نهاية المطاف إلى الريف. كان وقع أقدامنا يثير غباراً لا يهدأ. لاحظ إنك عندما تخوض حرباً في سلاح المشاة، يتوقع منك أن تتحمل كل شيء.

أخفض مورلاك عينيه عندما قال تلك الجملة، كما لو أنه يداري ارتباكه. وفجأة شعر لانتييه أنه قريب منه جداً، اجتاحته صور المسير الذي لا ينتهي والمناوبات المرهقة، وهاجمته ذكريات الخوف الرهيب والجوع والبرد والعطش بشكل عشوائي. أثناء الصمت الذي خيم، شعر بالآخر يرتجف.

* وأخيراً - قال مورلاك بنبرة صاحية - لنقل إن الجو كان حاراً. وعبّ نفساً من لفافته.

* كان هناك مخيم كبير شمال المدينة في السهل، كان حسن التنظيم ولكننا مررنا به فقط، كلما كنا نصل إلى مكان، نظن أننا وصلنا، وأننا سنستقر فيه. لكننا كنا نتوغل أكثر وأكثر شمالاً. أصبحت التضاريس أكثر وعورة، والطرقات مملوءة بالحصى، وكان علينا تركيب المعدات، ورأينا أين كانوا يريدوننا أن نصل: بالنسبة إلينا، كانت تلك الجبهة.

- هل كانت الجبهة بعيدة عن تسالونيك؟

* وما أدرانا في البداية؟ لحسن الحظ، عاد إلينا بعض الرجال وأخبرونا عن المعارك، وهكذا علمنا أن صربيا قد استسلمت، واحتلها النمساويون والبلغار، وأننا ذاهبون لاستعادتها. لقد عرفنا ذلك مصادفة، وراجت الكثير من الشائعات، فلم نعد نميز الصواب من الخطأ.

سمعنا الناس يتحدثون في تسالونيك عن هجوم الربيع، ثم فهمنا أنه تأجل وأنه سيبدأ الآن، معتمداً علينا بشكل مباشر. ولهذا كان الجميع يعلم ما ينتظرنا عندما تم إرسالنا إلى خط الجبهة.

وصل الحساء، كان معداً في المستشفى مع حساء المرضى، وقام مساعد ممرض بتوصيل أربعة أطباق منه في قصعة إلى السجن: اثنان للسجين واثنان لدوجو. كان الأخير يخشى إزعاج الضابط، لكن وصول الحساء كان بالنسبة إليه أشبه بظرف قاهر، إذ كان يحب تناوله ساخناً. وطالما أن الطعام لم يقدم للسجين، فلا يُسمح له بلمسه. علّق لانتيه الاستجواب، وترك السجن، محدّثاً نفسه بعدم تكرار خطأ اليوم بالحضور متأخراً.

*

لم ينم القاضي جيداً، أثارت مجموعة من المحتفلين ضجيجاً تحت نافذة غرفته ليلاً، وبعد ذلك لم يستطع الخلود إلى النوم. كان يفكر في مورلاك هذا، لِمَ لَمْ يلتقط العصا التي ناوله إياها؟ لِمَ لَمْ يقبل أن يقول إنه كان في حالة سكر؟ لِمَ لَمْ يعترف أنه كان متعلقاً بكلبه وأنه فقد صوابه للحظة؟ لو فعل، لأنزل به حكماً خفيفاً، ولانتهى الأمر.

في الوقت نفسه، ودون معرفة السبب، كان لانتيه يشعر بالامتنان لعدم استسلامه. فقد شهد العديد من القضايا البسيطة منذ تعيينه قاضياً:

مذنبين كلياً أو أبرياء حقيقيين على السواء. ولم يكن فيها ما يثير الاهتمام، فكان يبذل قصارى جهده لجعل القضية أكثر تعقيداً، سعياً وراء الجانب المثالي للمذنب، والمظلم للبريء. أما مع مورلاك، فكان يتعامل مع المتهم الأصعب، فيختلط الخير لديه بالشر. كان ذلك مزعجاً، ومثيراً للاشمئزاز عند التفكير به. لكن على الأقل، كان هناك لغز للبحث عنه.

نهض قبل بزوغ الفجر، كان الطابق الأرضي للفندق لا يزال غارقاً في الظلمة، إلا من ضوء وراء الباب الزجاجي للمكتب. كانت جورجيت، طباخة الفندق العجوز، تزكي النار في الموقد، فأجلسته في ركن الطاولة المغطاة بالخزف حيث اصطفت الأطباق.

- هل تعرفين قرية فاليناي؟

* إنها تقع على بعد ثلاثة كيلومترات، على طريق سانت أماند.

- هل بإمكان أحد أن يأخذني إليها هذا الصباح؟

* في أي وقت تنوي العودة؟

- في ساعة الغداء.

* في هذه الحال، يمكنك استخدام الدراجة التي في الفناء، فالسيدة تعيرها من حين إلى آخر للزبائن الذين يرغبون بزيارة الجوار.

عندما سلك لانتيه الطريق، كانت أشعة الشمس تتسرب من خلال شقوق الأسوار ككرة لامعة من الشوك، ولدى اجتيازه المحطة، وجد نفسه على الفور في الريف الذي كان أكثر حيوية من المدينة، بعربات السفر على الطريق، وخيول السخرة التي تعمل في الحقول، والأصوات التي يصدرها الفلاحون بألسنتهم لحثها على التقدم. أما في السماء التي ما

زالت باردة، فيحوم السنونو في دوائر محمومة. وبعد اجتياز تلة صغيرة، وصل إلى سهل واسع تتناثر فيه البرك التي تصب في بعضها البعض. حيث تضفي في الشتاء مزيداً من الرطوبة على المناطق المحيطة، وينمو الصفصاف على جنباتها، وتحفها الحقول التي تغمرها المياه لستة أشهر في السنة، فتطرزها نباتات العوسج. أما خلال موجة الحر هذه، فقد أصبح المكان أكثر برودة وأوفر ظلالاً، وأقل جفافاً مقارنة بالمدينة. وبسؤاله لسائق عربات عجوز، استطاع القاضي بسهولة العثور على عنوان المنزل، حيث تسكن فالنتين.

كان عليه أن يسلك درباً محاذياً للبركة الأخيرة. فحتى في فصل الصيف، تغرق أجزاء من الطريق في الوحل والطين اللزج، وكان على المارة القفز فوق الحجارة التي ألقيت هناك لهذا الغرض، ركن لانتييه الدراجة في أجمة من الزعرور وتابع سيراً على الأقدام.

كانت فالنتين في حديقتها التي كانت عبارة عن قطعة من الأرض حرثتها بيديها لسنوات، مما جعل مفاصل أصابعها تتعقد وأظافرها تسود، لم تكن تتحدث البتة إلى أحد، دون أن تخفي يديها خلف ظهرها. وعندما لمحت العسكري يسلك الدرب المؤدي إلى منزلها، تركت سلتها، وانتصبت مسندة كفيها إلى جانبي ظهرها. أما لانتييه دو غريز، فقد وقف على مسافة ثلاث خطوات منها رافعاً قبعته بالتحية، فبدت بزته العسكرية في ضوء الشمس، مهترئة وبالية، علاوة على أنها لم تكن مناسبة للفصل، إلا أن ارتداءها لم يكن ينم إلا عن رغبة سيئة في التميز وتجسيد السلطة. أما الآن، وبعد انتهاء الحرب، فقد بدا الأمر برمته سخيفاً.

- هل أنت... فالنتين؟

أعطاه المدعي اسمها الأول فقط. وكان ذلك كافياً للعثور عليها، لكن عند مبادرتها بالحديث، كان جهله بكنيتها مدعاة للخجل بسبب اضطراره إلى رفع الكلفة.

كانت فتاة نحيلة طويلة القامة، جهدت لارتداء فستان فقير من الكتان الأزرق، ولم تكن لها هيئة مزارعة، فذراعاها كانتا طويلتين تجري فيهما عروق سميكة، وشعرها البني غير الموضّب كان مقصوصاً دون شك، بالمقص نفسه الذي تشذب به صوف الأغنام، وجهها كان عظمياً ناتئاً. لم يكن كل ما فيها يستحضر طبيعتها المسالمة وحسب، إنما أيضاً كل المشاق التي تحملتها من أجل كسب لقمة العيش.

لم تنل ويلات الشتاء والعمل المضني، من جمال ونبل ذلك الجسد الذي عاركاه. تنطوي جميع تلك الفضائل في عينيها، فكان لفالنتين نظرة حادة، لكنها مشرقة ومباشرة وواضحة، ليس في تأمل الآخر فحسب، بل في قدرتها على فتح ممر واسع ينفذ إلى الروح مباشرة. وعلى الرغم من بؤس مظهرها، تعلن نظراتها أنها تتقبل ظروفها دون أن تستسلم لها. فالأمر يتعدى الفخر إلى التحدي. ومع سماع جلبة من أصوات مختلفة، خرج طفل إلى عتبة المنزل، أمرته فالنتين بإشارة من يدها أن يتوارى، فركض باتجاه الغابات.

- وماذا تريد مني؟

خلال أربع سنوات من الحرب، كانت زيارة عسكري هي إشارة إلى الموت، وقد بقيت هناك رواسب من ذلك. حاول لانتييه الابتسام وأن يبدو ودوداً. عرف عن اسمه وصفته. زرعت كلمة: «القضاء العسكري» التوجس في قلب المرأة الشابة.

- وبماذا أستطيع..

* هل تعرفين جاك مورلاك؟

أومأت برأسها بإيجاب، ملقية نظرة على أطراف الغابة، كما لو أنها تتأكد من أن الطفل لم يعد هناك. كانت الشمس قد استقرت في كبد السماء وطردت حرارتها ما تبقى من برودة، أحس لانتييه بالعرق يزخ من إبطيه.

* هل هناك من مكان نستطيع فيه أن نتحادث؟ وكان يريد أن يقول «في الظل».

- تعال، قالت، وهي تقوده إلى المنزل.

كان الباب مفتوحاً على مصراعيه. أخذت عينا لانتييه بالاعتياد على ظلام الغرفة مقارنة بالضوء المبهر خارجاً. تعثر بالبلاط غير المنتظم، وتمسك بزاوية خزانة الأواني. قدمت له فالنتين كرسياً، فجلس مسنداً أحد كوعيه على الطاولة. أحضرت إبريقاً من الماء وزجاجة شراب محلى التصقت سدادتها من السكر، وقامت فالنتين بحركة بيدها لهش الذباب.

تأمل لانتييه الغرفة خلسة، وتفاجأ إذ لم يكن بيتاً تقليدياً لفلاحة. فبطبيعة الحال، كان بيتاً ريفياً، تتدلى فيه باقات الأعشاب المجففة من السقف، وتمتلئ الرفوف بجانب الموقد بجميع أنواع المربيات والمجففات. كما تفوح روائح الأجبان والأطعمة المملحة من خلف شباك خزانة حفظ الأطعمة. إنما إلى جانب ذلك، كانت هناك تفاصيل مفاجئة، فكانت الجدران مغطاة بأوراق مقتطعة في معظمها من رسومات المجلات. ومع أن الرطوبة قامت بلف أطرافها وطمس حبرها. إلا أنه أمكنت رؤية

روائع من خلالها كتمثال داوود لمايكل إنجلو، ومعركة سان رومانو. كان هنالك أيضاً صور أقل شهرة، وجوه، مناظر طبيعة، صور عارية، كما شغلت لوحات لرواد المدرسة التكعيبية التي كان يمقتها لانتييه، حيزاً مهماً من الجدار، وعلى طول جدار آخر، اصطفت مجموعة من الكتب.

اجتاحت الضابط رغبة عارمة في النهوض وتفقد أغلفتها، لمعرفة ماهيتها. إلا أنه استطاع من موقعه أن يلاحظ أنها لم تكن كتب روايات نسائية، غُلِّف معظمها بأغلفة متقشفة وباهتة، لا ملونة كالمطبوعات الشعبية. جلست فالنتين بدورها مثبتة أنظارها عليه. ابتسمت إلا أن حدة نظرتها جردت تلك الابتسامة من أية حرارة. تناول لانتييه رشفة من الشراب لاستعادة رباطة جأشه.

- 4 -

- أنا المكلف بالتحقيق في قضية الجندي المسجون في المدينة والذي تعرفينه.

فهمت فالتين ما يقصده تماماً، إلا أن رد فعلها الوحيد كان أن رمشت بجفنيها. كانت تعرف كيف تسيطر على انفعالاتها.

- يدعى جاك مورلاك. كان من الغباء بعض الشيء التعريف عنه، لأن أحدهما كان يعلم تماماً ما يعنيه الآخر. أراد القاضي أن يدخل في اللعبة. وليقطع عليها الطريق، قال لها مباشرة:

- كيف تعرفت إليه؟

* لم تكن مزرعته بعيدة عن هنا.

- أظن ذلك.

* صحيح أن الطريق طويل. إلا أن هناك طريق يمر عبر البرك، ولا يستغرق أكثر من عشر دقائق.

- باختصار، لقد عرفته منذ نعومة أظفارك.

* كلا، هذا لأنني لم أولد هنا، لقد انتقلت عندما كنت أبلغ الخامسة عشر من العمر.

- قيل لي أن عائلتك قضت بوباء الحصبة.

* أختي وأمي فقط.

- ووالدك؟

أخفضت فالنتين ناظريها وأدنت من نسيج ثوبها إلى ما فوق الركبة. ثم رفعت رأسها ونظرت مرة أخرى في وجه الضابط.

* بمرض.

- ألم يكن مرض الحصبة؟

* كلا، كان مرضاً آخر.

أحس لانتييه بأن هناك شعوراً بالضيق يخفي وراءه سراً، ولكنه لم يكن يسعى إلى إجبار محدثته على الاعتراف، فقبل كل شيء، كان هذا لقاءً وليس استجواباً. ولم تكن في نيته أن يجرّ محدثته إلى موقف دفاعي.

- إذاً، وصلت إلى هنا بعد وفاة والديك، لماذا تم إرسالك إلى هنا؟

* كان لوالدي أراضٍ في هذه الأنحاء، كما كانت إحدى عمات والدي تقيم في هذا المنزل. وقامت برعايتي، ولكنها توفيت بعد عامين. فبقيت وحيدة.

عبقت في الأجواء رائحة ماء كولونيا، محلية الصنع، كالتي تستعملها العوانس في الأديرة، كانت تغطي على الرائحة السيئة لجذوع الأشجار الباردة والملح الصخري.

- أين كنت تقيمين ووالديك؟

* في باريس.

هكذا كان الأمر إذاً. لم يكمن بؤسها في العيش في هذا الريف الفقير، إنما في أنها عرفت وتاقت إلى حياة أخرى. كانت منفية في هذا المكان المعزول، ووحدها كانت الكتب والمخطوطات قادرة على إنقاذها من ذلك الغرق.

- كم كان عمرك عندما تعرفت على مورلاك؟

* ثمانية عشر عاماً.

- كيف؟

بدا لها هذا السؤال تدخلاً في شؤونها، إلا أنها أجبرت نفسها على الإجابة عنه كباقي الأسئلة. أما لانتييه، فساد لديه انطباع بأنها كانت من المتمرسين في تلك اللعبة، وأن صدقها لم يكن سوى ستارة، تسعى من ورائها إلى إخفاء ما هو جوهري.

* كنت لا أزال أملك حيوانات آنذاك، وكنت بحاجة إلى التبن. فذهبت إليه لشراء بعض منه. وربما قد أُعجبنا ببعضنا البعض.

- لِمَ لمْ تتزوجا؟

* كنا ننتظر أن أبلغ السن القانونية، ثم جاءت الحرب، وغادر.

- مع الكلب؟

انفجرت فالنتين ضاحكة، لم يظن لانتييه أنها قادرة على الضحك بهذه الطريقة، دون ضبط النفس. اعتلت وجهها لمحة خاطفة، إنما جلية، من المتعة، وفكر في أنها لا بد أحبت بهذه القوة، فاضطرب.

* نعم مع الكلب. إنما ما الفرق؟

- أنت تعلمين بأنه هو من جعله مذنباً.

* أوه، هذا؟

هزّت كتفيها.

* إنه بطل، أليس كذلك؟ لا أفهم لَمَ كل هذه الضجة من أجل هفوة.

لفظت كلمة «بطل» بطريقة غريبة، كما لو كانت تستخدم كلمة مستعارة من لغة أجنبية.

- لم تكن هفوة، أجاب لانتييه بحزم. كانت إهانة للأمة، إنما بصراحة، من الممكن أخذ استحقاقاته في الحرب بعين الاعتبار، ومحو سجله. وهو ما سعيت جاهداً من أجله، ولهذا فمن الضروري أيضاً أن يتعاون معنا.

* ماذا تعني؟

- أن يعتذر، أن يجد عذراً مخففاً لهذه القضية، أن يقول أنه كان في حالة سكر أو أن يجدَ تفسيراً آخر.

* هل يرفض؟

- لا يرفض فحسب، وإنما يزيد الطين بلة بتصريحاته غير المسؤولة. وكأنه يريد أن يُدَان.

تاهت نظرات فالنتين وارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة، ثم قامة بحركة مفاجئة، كما لو كانت تكنس شيئاً من على الطاولة بظاهر يدها، فارتطمت عرضاً بزجاجة الشراب التي سقطت أرضاً. كانت تلك إشارة إلى اضطرابها، نهضت، وكذلك فعل لانتييه، ثم ذهبت لإحضار ممسحة من تحت الخزانة، ملتقطة شظايا الزجاج بمكنسة. أراد الضابط أن يكون مفيداً، دون أن يعرف كيف، وفي النهاية، تركها تتصرف، واستغل وقوفه

للاقتراب من الرفوف المتقوسة التي تحوي الكتب. قرأ بعضاً من عناوين الكتب الكبيرة كيفما اتفق. كان هناك عدد من الروايات لإميل زولا، لمح أيضاً كتاب جولي أو إيلويز الجديدة لروسو، وفي موضع آخر، دون أن يكون متأكداً، قرأ اسم جول فيرن.

* حسناً، قالت فالنتين، المعذرة. لقد تم تنظيف كل شيء. ماذا كنا نقول؟

بدت قلقة وهي تدفعه باتجاه الطاولة، لإبعاده عن المكتبة. جلس وفكر للحظة طويلة قبل التحدث مرة أخرى.

- كما ترين، سيلتي، قد تكون قضية مورلاك على الأرجح من آخر القضايا التي تعهد إليّ، فأنا أخطط لترك الجيش لدخول الحياة المدنية. وأود أن أنهيها بما هو إيجابي، محتفظاً بطريقة ما، بذكريات جيدة عن وظيفتي. وإن استطعت منع المدعى عليه من السعي نحو إدانته، فلن تتخيلي ما سأشعر به من عميق الارتياح، وسأمضي حيتها بقلب غير مثقل.

كان يخجل من أن يقول أن له مصلحة شخصية في تلك القضية، إلا أنها فهمت ذلك منذ وقت طويل.

- مورلاك في الواقع هو بطل، تابع لانتييه. ونحن مدينون لأمثاله بالنصر. أود إنقاذه. ولكن هذا غير ممكن، طالما يتعنت عازماً على أن تتم إدانته دون أن أفهم لماذا. ولهذا السبب جئت.

نظرت إليه فالنتين دون أن تطرف. وكانت تنتظر التتمة.

- هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً، إنما يبدو لي ضرورياً؟

فلم تجب بشيء، وكما كانت تتوقع، لم ينتظر ردها.

- هل طفلك منه؟

كانت تعرف أنه سيصل إلى هنا.

* جول هو ابنه.

- له من العمر الآن ثلاث سنوات، فمن المرجح أنكما... خلال الحرب.

* عاد جاك إلى المنزل في إجازة، وخلال الوقت الذي بقي فيه، مارسنا الحب دون انقطاع تقريباً.

احمر لانتيه خجلاً، لكن حماسه للقضية كان أكبر من أن يعيقه حاجز كهذا.

- هل اعترف به في البلدية؟

* كلا.

- هل كان باستطاعته ذلك؟

* نعم.

- لكنه لم يفعل.

* كلا.

استقام لانتيه بشكل مفاجئ ومشى إلى حيث الباب، بقي للحظة على العتبة، تحرق الشمس عينيه المتسعتين. لقد عاد الصبي.

كان صبياً صغيراً يرتدي مزقاً من قماش مخيط، بلون الأرض، قابضاً على خلدٍ يخزه بعصاه، من دون ضغينة، إنما دون رحمة كذلك.

- هل رأيته منذ أن عاد؟

* كلا.

- لكنه عاد إلى هنا من أجلك؟

* لا أظن ذلك، إن كان قد عاد إلى هنا، فمن أجل مزرعته.

- إلا أنه لم يضع قدمه فيها، فقد كان يعيش في شقة مفروشة في البلدة.

كانت تلك واحدة من المعلومات الواردة في تقرير الدرك. قام زوج أخته باستغلال المزرعة منذ زواجه بشقيقته. حتى أنه لم يذهب لرؤيتهم بعد عودته. استقر في نزل تحت هوية مزيفة، ولكن المالكة تعرفت عليه على الفور. وعزت هذا التصرف الغريب إلى صدمة الحرب.

* لم أكن أعرف، قالت فالنتين.

- هل سعى لرؤية ابنه؟

* ليس على حد علمي.

- هل كنت لتسمحي له بذلك؟

* بالطبع.

- هل تسمحين لي بأن أبلغه بهذا؟

هزّت كتفيها غير مبالية.

- هل ستقومين بزيارته في السجن؟

* لا أعلم.

فكرت في ذلك لوقت طويل، شيء ما كان يمنعها، ولم يكن لانتييه ليسألها ما هو.

كانت الشمس تصليه دون رحمة أثناء عودته على دراجته، ورأى كيف كانت العجلة الأمامية تتمايل بفعل التعب والحرارة. ولام نفسه على أنه لم يسأل المزيد من الأسئلة.

*

كان جرس الدير يعلن الساعة الثانية ظهراً عندما ركن لانتييه الدراجة في باحة الفندق، صعد إلى غرفته ليغتسل سريعاً ويغير قميصه. ثم توجه إلى غرفة الطعام حيث تركت له جورجيت الطاهية، صحناً على طاولة. كانت بانتظاره سمكة شبوط وهريس الجزر الأبيض تغطيها قطعة من قماش. كأسان من النبيذ احتساهما، ما أجبره فيما بعد على الصعود لأخذ قيلولة استمرت نصف ساعة.

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة والنصف عندما همّ بالذهاب إلى السجن. انخفضت الحرارة قليلاً، وتغيرت مع اندفاع الريح الشرقية التي جلبت معها برودة الجو وروائح الغابات. في لحظات كتلك، كان لانتييه يشعر بحنين مبكر تجاه الحياة العسكرية التي سيفتقدها، باقترابه من دخول الحياة المدنية، كان السير في المدينة مرتدياً زيه العسكري أشبه بمتعة، أحس باقتراب التخلي عنها.

وبانعطافه عند زاوية شارع دانتون أصبح بمواجهة الشمس التي كانت تلقي بأشعتها على السجن، فتعثر بجسم ممدد على الرصيف، كان ذلك غليوم، كلب مورلاك، كان مستلقياً على جنبه، يتدلى لسانه طويلاً ليلامس الرصيف. بدا منهكاً بفعل الأيام والليالي التي قضاها في النباح. عيناه كانتا غائرتين في محجريهما، تلتمعان من الحمى. لا بد وأنه كان يشعر بعطش رهيب. توجه لانتييه إلى نافورة تقع في زاوية الساحة في ظل شجرة

الزيزفون. وأمسك بمقبض صغير شغّل به المضخة. وبسماعه صوت الماء يتدفق، نهض الكلب بصعوبة وسار إلى النافورة، وشرب لاعقاً الماء بلسانه أثناء إدارة لانتييه للمقبض البرونزي الذي يصدر صريراً.

عندما ارتوى الكلب، جلس القاضي على مقعد بجانب النافورة. في ظل الشجرة نفسه. متسائلاً ما إن كان غليوم سينزل إلى الساحة لمتابعة النباح. إلا أنه بدلاً من ذلك، وقف أمام المقعد مثبتاً ناظريه على الضابط.

كان من المؤلم رؤية الحيوان عن كثب، كان أشبه بمحارب قديم، يحمل الكثير من الندوب بقيت شاهدة على جروح خلفتها طلقات أو شظايا قذائف في الظهر وعلى الجانبين، دون أن تلقى أية عناية، كما لو أن الجلد تدبر أمر اندماله بنفسه كيفما اتفق، مشكّلاً نتوءات، ولويحات متقرنة وخطوطاً محبوكة. كانت إحدى قائمتيه الخلفيتين مشوّهة، فكان يحرص عندما يجلس، على أن يبقيها مائلة حتى لا ينجني فيقع على جانبه. مد لانتييه يده فاقترب الكلب لتلقي المداعبة. لم تكن جمجمته منتظمة السطح، كما لو كان يرتدي خوذة متعرجة، وكان الجانب الأيمن من أنفه وردياً فاتحاً وخالياً من الوبر جراء آثار الحروق العميقة. لكن في خضم هذا الوجه المعذب، أشرقت عينان مثيرتان للشفقة. لم يتحرك غليوم أثناء تلقيه المداعبات. من الواضح أنه كان مدرباً كي يصدر أقل قدر ممكن من الجلبة. باستثناء حالات الضرورة.

وحدها كانت عيناه تعبران عن كل ما كانت الكلاب الأخرى لتعبر عنه بواسطة قوائمها وذيولها وأنينها وتدحرجها أرضاً.

لاحظ لانتييه كيف كان الكلب العجوز يقطب حاجبيه ويحني رأسه قليلاً فاتحاً عينيه واسعتين لإظهار رضاه أو تضيق نظراته متخذاً تعبيراً

ماكراً يستعلم بواسطته عن نوايا ورغبات الشخص الذي أمامه. تصاحب هذه الإيماءات حركات ذات مغزى من العنق، تسمح له بالتعبير عن كل صنوف المشاعر، فهو لا يظهر مشاعره فحسب، بل ويتجاوب أيضاً مع مشاعر الآخرين.

على المقعد، وفي الحر المزعج، شعر لانتييه بتعب هائل يسري في جسده، أربع سنوات قضاها في خدمة الوطن مقاتلاً واثنتان في الدفاع عن النظام والسلطة بإدانة منتهكيها. شعر فجأة بالحنين إلى الحياة العسكرية، وأسف في تلك اللحظة للفراغ الذي تركته في نفسه. هل سيتمكن يوماً من أن يقوم بعمل آخر؟ وكما لو أن الكلب شعر بإحباطه. فدنا منه واضعاً خشمه على ركبته. تباطأ تنفسه كما لو كان يتألم. كان لانتييه يمسده دون توقف. كانت يده تنزلق بمودة على الرقبة القوية للحيوان، ممسدة أذنيه فيهز رأسه حبوراً. هو أيضاً كان يملك كلباً. كان اسمه كورغان، وما زال لانتييه يتذكر كيف كان يلاعبه في عزبة والده في بيرش. كان كلباً من سلالة صافية، جيد التغذية، وكان دلماسياً أبيض وأسود. إلا أن له نفس التفاني، حدث كل شيء عند بلوغه الثالثة عشر من العمر. حينذاك كانت أسرة لانتييه، تمضي الصيف في تلك العزبة على أطراف هويزن، وتعود في أكتوبر إلى باريس. ما خلا الأب الذي لم يكن باستطاعته الابتعاد كل تلك الفترة. فقد كان محامياً لأحد البنوك التي مقرها شارع لافاييت، وكان يسافر عائداً إلى باريس في أوائل أغسطس. تاركاً هوغ مع شقيقتيه الأصغر سناً ووالدته في العزبة. بدأت العائلة تعاني من مصاعب مالية، وبعد فترة وجيزة، أصبحت مضطرة لبيع تلك الملكية الموروثة عن أحد الأعمام.

في تلك الأثناء، تم خفض عدد المستخدمين، فتم التخلي عن الطاهية، وعن وكيل عجوز كان يهتم بأمور المشتريات والتسوق بواسطة عربته. وفي يوم من أيام الخريف، ومع هبوط الليل، دخل لصوص بسهولة من خلال عبورهم للسياج الفاصل من موضع منهار قليلاً. كانوا عصابة من المعتدين الذين لم يكونوا يخشون شيئاً ولا أحداً، ولا يستقرون في مكان واحد. كانوا ثلاثة يقودهم زعيمهم، وهو شاب أشقر، طويل القامة، كث اللحية. قاموا باقتحام غرفة المعيشة ساعة العشاء. جمع رئيس العصابة، وهو يصرخ، والدة هوغ وابنتيها في إحدى زوايا الغرفة، أما مرافقاه فقاما بإحضار المستخدمين ودفعوا بهما إلى نفس الزاوية، إلى حيث قام الرجل الثالث بشد وثاقهم بحبل غسيل، وصفّهم على الأرض الواحد بجانب الآخر خلف البيانو. وحده هوغ أفلت منهم، فكان في غرفته في الطابق الأول يلعب في تلك الأثناء، وأبصر المشهد من بين عمودين في درابزين السلم. أما ما حصل بعد ذلك كان عنيفاً وقذراً جداً. حطم اللصوص الخزائن وأفرغوا زجاجات النبيذ، مهدرين محتويات خزانة الطعام. اثنان منهما كانا يتعاركان، فيقذف أحدهما الآخر بالتحف، ويضرب رأسه باللوحات. لقد كان مشهداً لا يصدق بالنسبة إلى طفل. دمر النظام المسالم لهذا المنزل بالكامل، وحلت محله فورة من الرغبات البدائية والعنف الأعمى. انتظر هوغ أن ينتهي هذا الكابوس. لاحقاً، في وقت متأخر من الليل، تنبه أحد اللصوص، وكان أقلهم إسرافاً في الانغماس بتلك العربدة، إلى وجود أربعة نسوة تحت تصرفهم مما قد يمنحهم بعضاً من المتعة. لم تكن أخوات هوغ قد بلغن من العمر سوى عشر وأحد عشر عاماً، إنما لم يكن النذل ليتحرج من تفصيل كهذا،

فتوجه إلى خلف البيانو مطلقاً ضحكة مجلجلة، تفحص الأجساد الممددة وجرّ أحدها من أرجلها إلى منتصف الصالة، كانت تلك سولانج، كبرى الفتاتين، كانت ترتدي ثوباً أزرق هفهافاً أظهر قسماتها، أنهضها اللص الثمل وعرضها على الآخرين اللذين كانا قد تراجعا إلى جهة الستائر، كانت الطفلة المسكينة مرتاعة. لمح هوغ وجهها، وعينيها المتسعتين ذعراً، أوعزت إليه غريزته بالخروج من مخبئه لإنقاذ أخته، إلا أنه لن يكون سوى ضحية أخرى تضاف إلى الخمسة الآخرين الذين يقبعون تحت رحمتهم، أغلق عينيه وانتظر. ثم أجبرته صرخة حادة على فتحهما. صرخت سولانج التي كان المعتدي قد جردها من ثيابها، بكل ما تملكه من قوة، تراجع اللص مبهوتاً من قوة الصرخة، ومن ثم عبر الغرفة شيء ما، وقفز عليه. كان ذلك كورغان، سقط الرجل أرضاً وهو يكافح، مطلقاً صرخات بصوت أجش، قبض الكلب على فريسته من العنق، وطرحها أرضاً وهو ينهش وجهها. بهت الآخرون وهم يتأملون المنظر مذهولين، ثم سرعان ما نهضوا. ترك الكلب ضحيته الأولى وهو يصرخ من الألم، وانبرى لمواجهتهم. هبط هوغ الدرج مستغلاً الارتباك الحاصل، مستتراً وراء الدرابزين. فوصل إلى المدخل، وفتح الباب الزجاجي المؤدي إلى الحديقة وهرب، كان القمر قبالته، ينير المكان. لم يكن من الصعب إيجاد الطريق، فالقرية كانت على مسافة كيلو متر واحد، على طرف الغابة. أيقظ الشرطي الذي أعلن حالة التأهب. فانطلق عشرة رجال بسلاحهم فوراً نحو العزبة. عثروا على اللصوص وهم يقومون بتحميل كل ما وقعت أيديهم عليه من طعام ونبيذ في العربة. اقتادوهم إلى السجن، إلا أن كورغان كان ميتاً. لم ينسَ لانتييه أبداً تضحية هذا الكلب، ولكنه نادراً

ما كان يفكر فيها. إلى أن جاءت قصة مور لاك، وأعادت تلك الذكريات، فعاود التفكير بها محدثاً نفسه بأن ما حصل لم يخلُ من نتائج انعكست على حياته، لقد انخرط في الجيش للدفاع عن النظام ضد الهمجية. وأصبح عسكرياً من أجل خدمة الإنسان، كان في الأمر سوء فهم، فلم يطل به المطاف حتى بينت له الحرب عكس ما كان يعتقد، وأن البشر هم وقود النظام، وأنه يستهلكهم ويطحنهم، ولكن في أعماقه وبالرغم من ذلك كله، كان لا يزال متمسكاً بتلك الرسالة. والتي تعود في الأساس إلى ما قام به كلب.

ربما غفا، فقد قطع بالفعل قيلولته في الفندق من أجل الحضور باكراً إلى السجن، وها هوذا على المقعد يمسد الكلب. شرع يحلم من جديد. كان خشتم غليوم لا يزال عند ركبته. وكان ينظر إليه وهو يدوّر عينيه بطريقة هزلية. أزاح لا شعورياً بلطف ساقه وأبعد الكلب. ثم وقف وتمطى بعد... من هندامه وسار في طريق السجن. مالت الشمس نحو المغيب، فسادت الظلال في الساحة. قرع الباب ففتح له دوجو. وعند دخوله سمع الكلب من بعيد وهو يستأنف النباح.

- 5 -

كان هذا يوم الاستحمام. فبدا مورلاك حليق الذقن، مسرح الشعر، تفوح منه رائحة الصابون. وكان للوقت الذي أمضاه لانتيه مع الكلب، مفعولاً إيجابياً على مزاجه الجيد. ففور وصوله إلى الزنزانة، اتخذ مكانه المعتاد وفتح المجلد.

* أين كنا؟ آه، نعم! تسالوتيك.

- هل تريدني حقاً أن أتكلم عن كل هذا؟

* ليس بالضرورة. تكلم عن الأساسيات فقط.

- حسناً، وصلنا إلى الجبهة.

* كيف كانت الجبهة في تلك المناطق؟

كان مورلاك ينظف أحد أظافره بعود مشطوف. وبما أن النظافة تجر النظافة. شرع في التنظيف وصولاً إلى أضيق الزوايا.

- كانت عبارة عن وديان تحيط بها جبال مستديرة. لم يكن هناك خنادق بالمعنى الحرفي للكلمة، ولم يكن القتال مواجهة كما هو الحال في

بيكاردي والسوم. كانت مواقع العدو بعيدة بما فيه الكفاية. وكنا نختبئ في الثغور ونبدل الأماكن في كثير من الأحيان. مع طلقات المدفعية العشوائية.

* وماذا عن الطين؟

- لم يكن كثيراً. ولكنه كان حاراً في الصيف، بارداً في الشتاء. من العسير تخيّل التفاوت في درجات الحرارة. كان الجزء الأصعب هو بقاؤنا مرابطين لوقت طويل على الخطوط الأمامية. لطالما افتقر جيش الشرق إلى الرجال. ولهذا لم يكونوا يبدلوننا. كنا نمل من حالة التأهب وكنا نبقى لأسابيع طويلة على هذا المنوال.

* ماذا كنت تفعل؟

- كنت أقرأ.

* وماذا أيضاً؟

- لا غير.

قرر لانتيه طرح الأسئلة التي لم يستطع بلورتها بوضوح في اليوم السابق، عندما رآه يقرأ فيكتور هوغو.

* وكيف أمكنك القراءة؟ لقد تركت المدرسة في عمر مبكر، هذا ما عرفته.

تذمر مورلاك.

- أحب القراءة، وأي حرج تجده في ذلك؟

* وماذا عن ذوقك في القراءة، هل أخذته عن أحد؟

رفع السجين كتفيه.

- ربما

قرر لانتيه أن الوقت قد حان. وضع دفتر ملاحظاته جانباً، وتقدم خطوتين باتجاه الجدار الذي كان مغطى بخربشات بذيئة، ثم التفت فجأة:

* زرت زوجتك هذا الصباح. قد لا تبدو في عجلة من أمرك لملاقاتها. ولكنني أعتقد أنها في انتظارك.

- إنها ليست زوجتي.

* ولكنها والدة ابنك.

لمعت عين مورلاك من الكراهية.

- اهتم فقط بما يعنيك! يكفي استجواباً. قم بإدانتي ولننتهِ من هذا الأمر.

* إذاً فلنعد إلى كلبك، قال لانتيه، فالموضوع برمته يخصه.

كان لانتيه يقاوم الرغبة في أن يروي لمورلاك ما جرى له اليوم مع غليوم على المقعد. لكنه لم يشأ أن يتخلى عن هيبته كقاضٍ عسكري، إذ أن من شأن ذلك أن يرفع الكلفة.

كان للهجته الجافة وطابعه الجدي الذي انبرى به بكتابة ملاحظاته، تأثيرها على مورلاك. فأحنى الأخير رأسه كطالب مذنب، واستأنف بصوت آلي:

- بعد مضي شهر في الجبهة وما حولها، تم إجلاؤنا إلى منستير. وكانت تلك نهاية هجوم الربيع. إلا أن غليوم لم يتمكن من اللحاق بنا لإصابته بجروح في جنبه جراء شظايا.

* هل تركته على الجبهة؟

- لقد تولى الرجل الذي أخذ مكاني في الثغر، رعايته. كان صربياً تم نقله إلى كورفو بعد هزيمة بلغراد. كان ينظر إلى غليوم بطريقة غريبة، ولم أشك في أنه سبق و أكل لحم عدد من الكلاب، أثناء خدمته. كان كل ما طلبته منه هو أن يدفن الكلب إن مات.

* ولكنه لم يمت.

- لا، لم يكن عظمه يكسر بسهولة، هذا الكلب. قام بمفرده بشق طريقه عندما تعافى جزئياً، عبر الوديان من فاردار إلى منستير. وتلقى ضربات عصا على رأسه، وعند وصوله، كانت عيناه مغلقتين تقريباً من جراء الدم المتخثر.

* وبعد ذلك؟

- قضينا فصل الشتاء في المعسكرات وهذا ما ساهم في نجاتنا. كان البرد لا يصدق. لم يكن أحد قد شهد في أي وقت مضى، ما عدا صيادي جبال الألب، مثل درجات الحرارة تلك. وعندما أعادونا في شهر مارس إلى الجبهة من جديد، كانت لا تزال هناك ثلوج مجروفة بارتفاع مترين على جانبي الطريق.

* وماذا عن الكلب؟ هل كان بصحة جيدة؟

- لقد استعاد عافيته في منستير. لم أكن أهتم به كثيراً، ولكن أحد الرماة الإنكليز، وكنت ألعب معه الورق مساءً، قام بالعناية به. أنت تعلم كيف يعامل الإنكليز الحيوانات. أحضر له بقايا مواد تموينية ليطعمه، وليس القمامة، حتى أنه وجد له مطهراً للقروح التي كانت على ظهره.

* ألم يغره المضي مع ذلك الإنكليزي؟ لا أقصد الإساءة، ولكن لا يبدو أنك قد قدمت الكثير من المودة لكلبك.

- لقد أخبرتك. ربما كنت كذلك. ولكنني كنت سيده وكان يعلم ذلك.

* باختصار، بقي الكلب معك طوال مدة الحرب.

- نعم.

* هل حاربت كثيراً على تلك الجبهة؟

- ليس كثيراً، كانت حرباً غريبة، وكان الاتصال صعباً، وجدنا أنفسنا في مواجهة كتيبة نمساوية واضطررنا إلى الاشتباك بحراب البنادق، كانت تلك المرة الأولى التي رأيت فيها غليوم يفعل فعله، كان يميز العدو بدقة، وهاجم الجنود النمساويين دون خطأ.

* هل حصلت على تقدير في هذه الحرب؟

- كلا، فلم تكن بالأمر المهم، ولم نخرج بأي انتصارات. بالكاد نجونا بأنفسنا وهذا كان كل شيء، كما كان ذلك أيضاً ما كان النمساويون يرجونه.

* وباقي الوقت، ماذا كنتم تفعلون؟

- أموراً روتينية: مناورات ووردیات حراسة، وبعض مهمات الاستطلاع. وفي معظم الأحيان، كنا نمرض. كان المناخ سيئاً للغاية. لقد استطعت تفادي الملاريا ولكنني عانيت من زحار رهيب. وبما أنك مهتم بالكلب، فقد قام الأخير بالسهر على مرضي، كما سعى للحصول على المساعدة كلما كنت بحاجة إلى شيء.

بعد أن تعرف لانتيه إلى غليوم، وجد تفانيه خلال الحرب مؤثراً جداً. إلا أن برودة سيده كانت تبعث على الدهشة. كان كجميع المزارعين، على

علاقة نفعية ومجردة من كل تعلّق، وهو أمر كان يفهمه. إنما يبدو أن ما حدث بينهما كان شيئاً آخر، كما لو خلف شكلاً من أشكال الاستياء، لم يفصح عنه السجين.

وتابع القاضي التنقيب:

* هل شارك غليوم في المعركة التي حصلت فيها على تقدير؟

عبّ مورلاك أربع أو خمس نفثات متلاحقة من لفافته. بدا مفعول الدخان عليه باعثاً على الاسترخاء. فانحنى رأسه إلى الخلف حتى لامس الجدار. وبقي لفترة طويلة في هذه الوضعية، وفجأة جلس ونظر إلى لانتييه.

- إنها قصة طويلة، سيدي القاضي. سيكون من الأفضل لو نرويها خارجاً، ألا تعتقد ذلك؟ أليس في وسعنا الذهاب لتتمشى؟

كان لانتييه يفكر في نفس الفكرة تقريباً. إذ بدأ بالتململ من هذه الزنزانة المظلمة التي تعبق بالهواء الراكد ورائحة التبغ، في حين كان الجو لطيفاً في الخارج. وقد وصل إلى نقطة حاسمة في استجوابه لمورلاك، وأمل أن يحوز على ثقته.

* أنت على حق. يمكننا أن نسير في الفناء.

لم تكن تلك ساعة التنفس، إنما لم يكن هناك أي سجين آخر وبإمكان دوجو أن يفتح الباحة المخصصة للتنفس. ذهب الضابط إلى الحارس الذي اتخذ هيئة جدية مفكراً طويلاً بصمت، لمعرفة ما إن كان مثل هذا الطلب متوافقاً والتعليمات. إلى أن حسم لانتييه الأمر أخيراً، طالباً إياه بصيغة أمر عسكري.

أدار السجان المفتاح في القفل وهو يتذمر، فدلفوا إلى فناء بمساحة ملعب تنس، تنبت بين الحجارة المرصوفة الأعشاب والسراخس المصفرة بفعل الجفاف. فلديها بقية العام لامتصاص الرطوبة، كانت الجدران مبنية بالحجر الدبش مرصوفة بواسطة إسمنت حبيبي سميك، ما منحها مظهراً قروسطياً، أما فوق هذه الباحة التي لا تعود إلى زمن محدد ولا جاذبية لديها، امتدت مظلة السماء النيلية، تطفو عليها ببطء غيمات برتقالية صغيرة، وظهر رأس صنوبرة من خلف الجدار وقد تجاوزه ارتفاعاً، بدا مورلاك مسروراً جداً لتنسمه هذا الهواء الآتي من بعيد، وشعر القاضي أن السجن لم يعد يثقل على قلبه طالما أنه رأى السماء.

عبرا الباحة قطرياً، ثم بدآ بالتجوال حولها، كسائر السجناء في العالم.

- لا أريد أن يكون هناك أي سوء فهم، بالنسبة إلى التقرير الذي سوف تكتبه. لهذا السبب لا بد لي من أن أقول لك شيئاً أقوله للمرة الأولى: كنتَ على خطأ بشأن التقدير الذي استحققته.

* ماذا تعني؟

- حسناً، وعذراً للتعبير، فأنت تلف وتدور. لقد طرحت عليَّ أسئلة بخصوص كلبي، محاولاً جعلي أقول إنني أحبه، وإنه كان رفيقي في السلاح. وأرى جيداً إلى أين تريد أن تصل.

* هذا في مصلحتك، لقد سبق وقلت لك هذا.

توقف مورلاك لبرهة قصيرة ووقف قبالة القاضي. وكان قد استعاد تعبيره الجاد ذا المغزى. من الواضح أن الهواء الجيد لم يفعل مفعوله لفترة طويلة من الوقت.

- لا أريد منك أن تجد لي أعذاراً مخففة.

* ألا تريد الخروج من هنا؟

- لا أريد أن يشوّه القصد من أفعالي. رجاءً لا تمنعني من قول ما لدي.

* حسناً، ستكون فرصة لتشرح لي بشكل أوضح. لأني أعترف أنني لا أفهم تصرفاتك أو إصرارك على أن تدان بشدة.

لم يبدُ مورلاك منزعجاً من هذا الاعتراف. فاستأنف مشيته.

- هل تذكر ما حدث عام 1917، يا سيدي؟ أرسل لانتييه نحوه بطرف عينه لمحة قلقة. 1917، عام الحرب الأسود. عام «حرب طريق السيدات[7]» وحركات التمرد الرئيسة؛ سنة من اليأس والصدمات المتناقضة: إنزال الأميركيين وانسحاب الروس. هزيمة الايطاليين والانضمام إلى قوة كليمنصو. بدأت بشكل سيئ.

لحسن الحظ، كان دوجو يلوح بالمفاتيح أمام الباب. لم يغير الخروج إلى الباحة من بقية الطقوس، وكان الحساء قد وصل. لمرة واحدة، هنأ لانتييه نفسه لبدء الاستجواب في وقت متأخر جداً. سيكون لديهم كل الوقت لبدء المرحلة الأصعب من الاستجواب.

*

7- هي معركة وقعت في فترة هجوم الربيع خلال الحرب العالمية الأولى. على الجبهة الغربية في عام 1918، جنرال إيريك لودندورف، نائب رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية، يطلق هجوما ثالثاً: هجمات تضليلية ضد الفرنسيين الذين يحمون جيمن قصر السيدات، على أيسن. والهدف من ذلك هو منع ودندورف الفرنسية لإرسال تعزيزات للبريطانيين الذين هم في شمال فرنسا، حيث يعتزمون شن هجوم على كاليه.

في طريق العودة، تردد لانتييه بالالتفات لمداعبة الكلب، آمله أنه ينبح مجدداً، مستنفداً وممدداً على قارعة الطريق في ساحة ميشيليه، ولكن الناس بدأت بالخروج نهاية عصر هذا اليوم، صعدت عربة طريق الدير وهي تطحن حجارة الطريق تحت عجلاتها، مر عامل بسترة سوداء متأبطاً سلماً وهو يصفر. لم يرغب لانتييه أن يزكي الشائعات في المدينة حول عطفه وحنوه على الحيوانات، عبر الساحة بخيلاء متجهاً نحو شارع الرابع من سبتمبر، ثم دخل ليشتري تبغاً كمؤونة لاستجواب الغد. كان لانتييه يدخن قليلاً، ولكن مورلاك اعتاد أن يطلب منه لفائف التبغ، وأراد أن تكون تلك ورقة في صالحه. وفي اللحظة التي خرج فيها من متجر التبغ، صادف قائد فرقة الشرطة في المدينة، كان يرغب في لقائه لدى وصوله إلا أنه كان مسافراً.

* المشير غابار رئيس الإمداد ، أعلن الشرطي بصوت أجش، متخذاً وضعية الاستعداد.

قصير الساقين أحمر الوجه، منتفخ البطن، كان للمشير هيئة شخص ريفي. كان أمراً عرضياً، أن ينخرط شخص مَن الريف في سلك الشرطة. كان قراره هذا أشبه بقرار مزارع يختار أن يزرع حقله بالبرسيم بدلاً من الشوفان معتمداً على حاجة السوق.

هذا ما فهمه لانتييه من خلال حديثه مع الشرطي الآخر، حيث تقتصر الشرطة في هذه البلدة الهادئة على رجلين اثنين. ومن الواضح أن غابار قد أمضى حياته هناك.

* لقد عدت للتو من حضور جنازة على بعد ثلاثين كيلومتراً من هنا. آسف سيدي، لأنني لم أساعدك في التحقيق.

لم يذهب الشرطي إلى الحرب. فقد كان يرتعد أمام الضابط دون أن تكون له تلك المسحة من السخرية التي تعلو وجوه الجنود عند تقديمهم أنفسهم لرؤسائهم.

- استرح أيها المشير، كل شيء كان على ما يرام، أشكرك، هل لديك لحظة من الوقت؟

* تحت أمرك سيدي القومندان.

- في هذه الحال، تعال معي إلى ساحة اتيان دوليه، أعتقد أن ذلك كان اسم تلك الساحة الصغيرة هناك، حيث توجد كراسي تحت الأشجار.

سارا معاً في صمت. كان الشرطي يعرج قليلاً. ربما كانت إصابة حرب. وصلا إلى الساحة، وجلسا على الكراسي حول طاولة صغيرة مزججة. وضع غابار قبعته على ركبتيه، ممسداً بعصبية حاجبه المرسوم. جاء النادل لأخذ الطلبات وعاد بكأسين من الجعة. بدأت الشوارع تلتف بالظلال الأرجوانية بينما كانت السماء لا تزال صافية، مشربة بحمرة وردية. كان الهواء بارداً وبدأت الرطوبة المخزنة من أشهر المطر ترشح من الجدران. إنما ظلت الكراسي والأرض دافئتين، تمنحان تلك الساعة من المساء متعة، تزداد قيمتها مع الإحساس بأنها زائلة.

- ذهبت بشكل يومي إلى السجن. وقد اكتمل استجواب المتهم تقريباً.

أخذ الشرطي هذه الجملة على عاتقه كما لو كانت لوماً موجهاً إليه.

* معذرة. قال الشرطي.

لم يرد لانتييه أن يسبب غياب الشرطي الحرج له. فقال له مطمئناً:

- هل عرفته أنت، أقصد مورلاك هذا، قبل أن يصبح مشهوراً؟

* عرضياً كأي شخص آخر، ثم أضاف بمكر: كان رجلاً غريباً.

- غريباً! كيف؟

* لا أعرف تماماً يا سيدي. فبالكاد رأينا الرجل. لم يكن لديه أصدقاء، ولا أسرة. وعندما عاد من الحرب، أقامت البلدية احتفالاً للمحاربين. فحضر إليه ولكنه كان يشرب وحده في زاويته وغادر دون أن يودع أي شخص. وكان أمين سر البلدية على قناعة بأن مورلاك هو من سرق أدوات المائدة الفضية. ترددنا بإجراء تحقيق. وأخيراً، وفي ضوء خدمته على الجبهة، تم التنازل عن التهمة. لكنه فعل ذلك علناً تقريباً، كما لو كان يريد فعلاً أن يتسبب في فضيحة.

- هل تعرف فالنتين، والدة ابنه؟

* آه، أنت تعرف بالأمر إذاً. كان غابار قد بدأ بالاسترخاء. أنهى زجاجة الجعة وأومأ القاضي للنادل لإحضار أخرى.

* هذه مسألة أخرى. فهي تحت المراقبة.

- اعتقدت أنها لا تغادر منزلها. فذهبت لرؤيتها. عملياً إنها تعيش في الغابة.

* هي لا تخرج ولكن هناك أناس يقومون بزيارتها.

- أي نوع من الناس؟

انحنى الشرطي إلى الأمام، ملقياً نظرة حذرة حوله.

* عمال، ثم قال بصوت مكتوم: من الفارين من الخدمة. هي تعتقد أن لا أحد يعلم. ولكننا نتجاهل الأمر عن قصد، بحيث لا ينقطعون عن

التردد على منزلها. ولكنهم، في الواقع، تحت المراقبة، وعندما يخرجون، نقبض عليهم. ابتسم بمكر كصياد يكشف عن موضع الأفخاخ التي نصبها.

* هل تعرف عائلتها؟ سأل الشرطي، واثقاً من تأثيره، دهش لانتبيه كما كان يتوقع.

- أعتقد أنه لم يعد لديها عائلة. فقد ماتوا جميعاً بسبب المرض. هي من قالت لي هذا.

* من الطبيعي أن يكونوا ميتين لأنهم عاشوا، قالها الشرطي فخوراً بمنطقه.

- أريد أن أصدقك. وماذا في ذلك؟

* ألم تقل لك من كان والدها؟

- لا.

* هي تكره حب الظهور. ولكن والدها، كما ترى، كان يهودياً ألمانياً، مقرباً من روزا لوكسمبورغ[8] التي اغتيلت الشتاء الماضي في برلين. وكان عضواً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، ومحرضاً وداعيةً من دعاة إنهاء الحرب المستميتين. اعتقل ومات في السجن في انجيه. متأثراً على الأغلب بالسل.

8- روزا لوكسمبورغ (بالإنجليزية: Rosa Luxemburg) (ولدت في 5 مارس 1871 - 15 يناير 1919) هي منظّرة ماركسية وفيلسوفة واقتصادية واشتراكية ثورية من أصول بولندية يهودية عملت بالتجارة وأصبحت مواطنة ألمانية. كانت عضواً في كل من الديمقراطي الاشتراكي لمملكة بولندا وليتوانيا، الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني والحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل والحزب الشيوعي الألماني.

- وأمها؟

* كانت فتاة من هنا. أرسلها والداها إلى باريس لتتعلم الخياطة في أحد بيوت الأزياء. وهناك التقت بذلك المهاجر، وأغرمت به بجنون ثم تزوجا. يقال أنها تنحدر من عائلة كريمة، وكان ذووها تجار ماشية يملكون عدة أراضٍ في المنطقة. فورثت حصة صغيرة لأن الحصص الأكبر ذهبت إلى إخوتها. لحسن الحظ أن ذلك حصل بعد وفاة زوجها، وإلا فقد كان ليبيع كل شيء في سبيل الحصول على المال دعماً للقضية.

مع الزجاجة الثانية من الجعة، أصبح الرقيب مسترخياً تماماً. كان لانتييه متفاجئاً بحنكته ودرايته. كما شك في أنه كان يخبئ أوراقه ولكن ليس بعد هذا الحد.

* المرأة المسكينة، قال متابعاً، لم تستفد من إرثها. فسرعان ما انتقل، بعد إصابتها وابنتها الكبرى بوباء، إلى فالنتين تلك، التي تشبه والدها إلى حد كبير، على ما يبدو، كما أخذت عنه طباعها الحادة.

- لا يبدو عليها ذلك. عندما لفظ تلك الجملة، تذكر لانتييه عينيها القاسيتين والطريقة التي تحدثت فيها عن الحرب.

* إنها ماكرة، لقد احتضنتها عمة والدتها، كانت امرأة غريبة الأطوار، استقرت في هذه البقعة البعيدة كي لا ترى أحداً. قد حوّلتها إلى ساحرة على الأرجح.

- هل تعرف لِمَ لَمْ يعد مورلاك إليها بعد الحرب؟

هزّ الدركي كتفيه غير مبالٍ.

* وهل يمكننا أن نخمن ما يفكر فيه الناس؟ لقد تشاجرا دون شك.

- هل كان في حياتها شخص آخر؟

* لقد قلت لك: الكثيرون يمرون من هناك.

كان الثوار يستخدمون منزلها كمخبأ للرجال الذين لديهم مشاكل مع الشرطة. وما إذا كانت على علاقة مع أحدهم، فهو ما لا أستطيع الجزم به.

خيّم الظلام كلياً. أضاء النادل مصابيح الزيت حول الطاولات، اثنين من مصابيح الغاز على كل جانب من الساحة، انتشر ضوء بنفسجي على الحصى. نظر لانتييه إلى ساعته. حان وقت العودة إلى الفندق، وكان يأمل بأن يجد عشاءً بانتظاره.

- هل تريد مساعدتي، حضرة المشير؟

تذكر غابار فجأة مع من كان يتحدث. فجلس وقال بصوت عالٍ:

* نعم، سيدي.

- حاول معرفة إن كان مورلاك قد رأى ابنه منذ عودته.

* لن يكون ذلك سهلاً، ولكن...

- أنا أعول عليك. تعال لرؤيتي عندما تستطيع، أو إن كنت تعلم شيئاً.

ترك لانتييه بعض النقود على الطاولة ووقف. حاول الشرطي أداء التحية العسكرية، لكن القاضي صافحه.

اتجه إلى الفندق، كان يبدو أن النسيم يحمل في بعض الأحيان صوت نباح كلب. لكنه كان ضعيفاً جداً وغير منتظم.

- 6 -

لم تشأ فالنتين الدخول، لذا ظلت واقفة أمام باب الفندق. أما لانتييه الذي لم يكن بإمكانه القيام بأي عمل قبل تناول قهوته، فقد تعرف إليها من بعيد. لم يكن يتوقع زيارتها، على الأقل ليس بهذه السرعة، ومن الصباح الباكر. يبدو أنها كانت تفكر كل الليل دون أن يغمض لها جفن. وهي الآن هنا، متجهمة الوجه، وقد حسمت قرارها.

– صباح الخير فالنتين، قالها لانتييه وهو يخرج إلى العتبة. ادخلي من فضلك. وتفضلي بشرب القهوة.

كانت تمسك سلة ذات مقبضين تتأرجح بعصبية من زندها. فكر لانتييه في والدها، المناضل السياسي، والذي قال غابار إنها تشبهه. كانت بلا شك من نفس الطينة، باستطاعتها أن تضرم النار في منزل برجوازي، دون أن تخجل من أن تدعى إليه. انتهى لانتييه إلى إقناعها ودخلت.

عندما سار خلفها عبر أروقة الفندق بجدرانه المكسوة بورق الجدران والمزينة باللوحات فهم ترددها. كانت في منزلها، منسجمة مع الأثاث، أما هنا فقد كانت تبدو بلباسها الخشن وقبقابها الخشبي أشبه بامرأة رخيصة.

قادها لانتييه إلى خلف المبنى، إلى حيث كانت هناك شرفة مزودة بمقاعد خاصة للحدائق. بدا المكان في الخارج ملائماً أكثر لمظهرها من الصالونات المزخرفة بالجص.

طلب قهوة. أما هي فلم تكن ترغب في شيء، في رفضها هذا كانت تعلن أنها لا تريد شيئاً ممن تعتبرهم أعداءً لها. أو على الأقل يمكن اعتباره سلوكاً محترماً أو حتى متردداً.

وجد لانتييه تفكيره مضحكاً وصبيانياً بانزلاقه إلى تحليلات ونتائج لا فائدة منها، كفنجان القهوة هذا.

وضعت سلتها على الأرض، وتظاهرت بالبحث داخلها، للحفاظ على رباطة جأشها.

عندما جلب الخادم القهوة للانتييه فقط، بدأت من دون مقدمات، موجهة إلى لانتييه نظرة تهديد:

* لقد قررت، أريد أن أراه. وأريد له أن يعرف.

- لقد اقترحت هذا، ولكن...

* بالتأكيد، سوف يقول لا. ولكن لا يكفي أن تقترح عليه ذلك عليه فقط. لفظت الكلمة مقلدة لهجة لانتييه. اللهجة البسيطة تكفي لقياس العنف الذي يسكنها عندما تفكر في الجيش.

- ماذا تريدين مني أن أقول له بالضبط؟

* أنني يجب أن أراه، وأن عليه ذلك، وأنني أريده.

- اعتمدي علي، وسآتيك بنفسي لأنقل لك جوابه، في حال غير رأيه.

* لن ذلك يكون ضرورياً.

- لماذا؟

* لأنني سأبقى في المدينة أنتظر، خلال الوقت الذي يستغرقه التحقيق.

رفع لانتييه حاجبيه تعجباً.

* أعرف بائعة خضار تبيع منتجاتها في السوق المجاور وهي تعيش خلف الساحة. ستؤويني خلال الوقت الذي تستغرقه.

- حسناً جداً.

* هل يحق له استلام الرسائل؟

- نعم، ولكن السجان يفتحها ويقرأها.

* في هذه الحال، من الأفضل التحدث إليه، قالت بما يشبه الصفير. ثم نهضت حاملة السلة وسندتها بوركها، كما تفعل النسوة الغسالات.

* قل له إنه عندما عاد، كان مخطئاً، فلم يكن أكثر من مجرد رفيق.

- هل تقصدين أنه...

* لم أقل هذا لك، وإنما له. له وحده.

اضطربت فالنتين، فكان اضطرابها متناقضاً مع التحفظ القسري الذي فرضته على نفسها، بالكاد قالت وداعاً، فضلت الهرب، ولم يستوقفها لانتييه.

*

عند وصوله إلى السجن لأخذ آخر اعترافات مورلاك، صعق القاضي بالصمت الذي كان مخيماً. لم يكن هناك من أثر لغليوم، ولم يعد يسمع له صوت. سأل دوجو عما كان من أمر الكلب.

* لقد تهالك، بفعل نباحه بتلك الطريقة. وفي الليل صمت. استطعت رؤيته في ضوء القمر ممدداً بكامل جسده هناك. ظننت أنه يحتضر. وسأصدقك القول إن ذلك لم يزعجني. ولكن في الصباح، حمل لي الممرض أخباراً، أثناء توصيله الحساء.

- أين هو؟ أنت تعرف أنني أحتاج إلى الكلب من أجل التحقيق، فهو شريك في الجرم. هذا نوع من الضلوع في الجريمة أو التواطؤ الجزئي.

* إنه في منزل في الجوار، هل ترى الشارع الذي ينحدر قطرياً في الساحة المقابلة؟ إنه هناك في الطابق الأرضي. الباب الأول.

- هل ذهبت إلى هناك؟

* لا يسمح لي بترك مكاني.

- صحيح، في هذه الحال، سأذهب بنفسي.

عبر لانتييه الساحة وهو يتساءل لماذا اخترع قصة الضلوع في الجرم تلك. كان من الممكن الحكم على مورلاك دون الحاجة إلى مثول الكلب أمام محكمة عسكرية. فكل شيء كان مدوناً في محضر الشرطة، وكذلك كان تقرير التحقيق الذي أجراه مكملاً له. الواقع هو أكثر سخافة. كان يريد أن يرى الكلب مرة أخرى، كان لديه اهتمام شخصي بمصيره. جعلته هذه الفكرة يبتسم، ولكنه لم يتراجع.

كان البيت الذي أشار إليه دوجو مؤلفاً من طابق واحد محشور بين عمارتين. وهو من بقايا حي الأكواخ القديمة، عندما كانت البلدة عبارة عن قرية مؤلفة من بيوت متراصفة، دون طوابق. ثبت الباب في إطار من الحجر. وعلى الساكف، كُتِب بخط فج، تاريخ ممحي جزئياً:

1778. قرع لانتييه حلقة الباب التي كانت على شكل يد من البرونز. فأجابه صوت نسائي من الداخل دعاه إلى الدخول. رائحة عفن خرق بالية أشبه بالسجادات اختلطت مع روائح دهن بارد، تشربتها الستائر وقماش المفروشات. كانت الأيام المشمسة هنا قليلة، ولم تكن سوى أمر عارض سرعان ما يتم نسيانه، ففي الأوقات العادية، أي على مدار العام، لم يكن هنالك من داعٍ لتجديد الهواء. بل كانت النوافذ تفتح للتأكد من أنها لا تزال صالحة. وكانت المفروشات كثيرة بحيث يجد المرء صعوبة في التحرك.

احتلت طاولة بيضاوية وسط الغرفة. كان بينها وبين الموقد الرخامي الذي ذاب غطاؤه، متسعاً لحشر كنبة كبيرة. كان غليوم ممدداً على شرشف فُرش على عجل لحماية السجاد. وعلى تلك الأرضية من اللون الوردي الباهت، بدا الكلب بحال سيئة جداً. لم يستطع لانتييه في ذلك اليوم، وفي الضوء الذي ينير الساحة، أن يقدر إلى أي حد أصاب الهزال ذلك الحيوان المسكين. فرأى أضلاعه بارزة وبطنه ضامراً، يطلق عند تنفسه صفيراً صادراً من الأعماق. وكشف وبره المتقشر والخفيف عن ندوبه. كان يرف جفنيه ببطء، منهك القوى، حتى أنه لم يحرك رأسه عندما اقترب القاضي ليمسده.

* هل رأيت الحال التي آل إليها هذا الحيوان المسكين؟ تقدمت المرأة العجوز، التي لفظت تلك العبارة، متكئة على الأثاث. كانت ترتدي شعراً مستعاراً لم تكلف نفسها عناء تسويته، فبدا مائلاً كقبعة العسكر.

كنت أطعمه كل ليلة. وقدّم له آخرون من الجيران ما يشربه، ولكن في هذا الحر، كاد النباح المتواصل أن يقضي عليه. وافقها لانتييه القول،

جالساً على حافة الكنبة، ممسداً رقبة الكلب كما فعل عندما كان في الساحة. أغمض غليوم عينيه وتنفس بشكل أبطأ.

* هل أنت البيطري؟ ربما قام السيد بول باستدعائك. فقد قال لي إنه سيفعل.

- كلا لست البيطري، للأسف.

كان خائفاً من أن تسأله عمّا جاء يفعل هنا. ولكن لدى عودتها إلى المطبخ استطردت قائلة.

* لاحظ أنه ليس بحاجة إلى بيطري. من الواضح أنه ليس بحاجة إلى أكثر من الظل والأكل والشرب وهذا كل شيء.

- هل ستبقينه هنا؟

* ما طاب له البقاء، ولكن عندما يتحسن، سوف يذهب للعويل أمام السجن، إن لم يطلقوا سراح صاحبه.

عادت حاملة نوعاً من الطست المغشى بالمينا المتصدع.

* العسكر الأوغاد! تذمرت، فارتبك لانتييه. هل توجهت بكلامها همزاً إليه؟ بمَ عليه أن يجيب؟ إلا أنه فهم عندما رآها عن كثب. كانت تسترشد بالأثاث لمعرفة طريقها، لأنها كانت شبه عمياء. كانت إحدى عينيها مغلفة بشاش أبيض والأخرى تنظر إلى أعلى. من الواضح أنها لم تكن قد ميزت البزة العسكرية.

- هل تعرفين صاحبه؟

* كل الناس تعرفه، فهو رجل من البلدة.

- ما هو الذنب الذي اقترفه؟ فتنت لانتييه فكرة أن يسمع أحداً

يتحدث إليه، دون أن يعرف من هو، ودون الحاجة إلى استخدام الصيغة الرسمية.

* لا شيء، لم يفعل إلا كل ما هو جيد، لقد قال لهؤلاء الجزارين حقيقتهم. ومن الواضح أنه لم يعجبهم ذلك، فقاموا بالانتقام.

- العسكر؟

* بالطبع، كل العصابة. الجنرالات، الشرطة التي في خدمتهم وتجار السلاح. كل الذين يرسلون أولئك الرجال الصغار في هذه البلاد إلى الموت.

حوّلت المرأة بشكل ميكانيكي، أنظارها الفارغة إلى خزانة الصحون التي تحتل مساحة من الحائط بين النافذة وجدار المدخل. كان هناك ثلاث صور مؤطرة، وضعت فيها ثلاثة وجوه لفتية في ريعان الشباب بنظرات ساذجة، هادئة ومفعمة بالأمل، أكبرهم لم يتم الخامسة والعشرين عاماً بعد. على الجانب، وفي إطار أكبر يظهر رجل نحيل في زي مجند.

* ابني وأحفادي الثلاثة قالت المرأة العجوز كما لو أنها شعرت أن لانتبيه حول نظره باتجاه الصور.

- كلهم؟

* نعم، وفي العام نفسه. 1915. سادت لحظة صمت، كما لو أن المرأة تماسكت لتطرد الانفعال، أقحمت الرضّاعة في فم غليوم ورفعت الزجاجة كي ينساب الماء، شرب الكلب مصدراً أصواتاً، سعل واختنق ولكنه تابع، كما لو أنه فهم أن هذا لمصلحته.

- وماذا ستفعلين إن تمت إدانة صاحبه؟ هل ستبقينه لديك؟

* إن أدانوه! لا قدّر الله! آمل ألا يحدث ذلك. طيلة أربع سنوات، لم يتوقفوا عن سوق أبنائنا إلى حتفهم. لكن الحرب قد انتهت الآن. ولن ينجو المحافظ والدرك وكل المستفيدين الكبار من المساءلة. سيكون ذلك من سوء حظهم إن ثبتت إدانة الرجل.

سعل الكلب سعالاً عنيفاً أخرج الماء من فمه، ونشره على الشرشف.

- اللعنة، لقد بالغت في تلقينه. اهدأ يا صغيري! اهدأ!

انتزعت الزجاجة من خشمه. فجأة مرت في خاطرها فكرة، فثبتت عينيها الميتتين باتجاه لانتييه، وسألته:

* ولكن، من تكون بالضبط؟

- أنا صديق.

* للكلب؟ قالت هازئة.

- لصاحبه.

همّ لانتييه بالذهاب خشية أن تصر على أسئلتها وأن يكون مضطراً إلى الكذب، الأمر الذي قد تكون له عواقب غير مرضية.

- المعذرة، لكنني مضطر إلى المغادرة، سأمر لاحقاً. اعتني به جيداً، وشكراً جزيلاً مرة أخرى.

خرج القاضي، وأثناء إغلاقه الباب، سمع المرأة العجوز تمازح غليوم.

* لصاحبك أصدقاء غريبو الأطوار!

*

لم يضيع لانتييه الوقت في المواربة، مع المرأة العجوز. كان جرس الدير يقرع دقاته التسع عندما وصل إلى السجن. من النظرة الأولى، كان جلياً أن مورلاك كان بانتظاره. لقد تغير السجين كلياً. فلم يعد يرهقه التحقيق، كان بانتظاره.

إحدى ميزات الجيش، هي عندما يتم إصدار أمر ما، فيجب إصدار أمر آخر لإلغائه، وبما أن لانتييه لم يصدر عشية اليوم السابق أي أمر لدوجو، فقد أخذهما هذا الأخير مباشرة إلى الباحة الخلفية، وأغلق الباب مفسحاً المجال لكي يتكلما. ومن وقت إلى آخر كان يأتي ليلصق أنفه على زجاج الباب ثم يمضي مطمئناً. قاد مورلاك الضابط هذه المرة للجلوس في مقعد يتمتع بقسط وافر من أشعة الشمس.

* سيكون اليوم أطول بقليل، إنني أنبهك.

- لدي كل الوقت.

في الفسحة الضيقة لهذه الباحة، بقيت برودة الليل محتجزة كما في قعر بئر، داعبتها الشمس بأشعتها ودفأتها.

- كنا نتكلم عن عام 1916، العام الذي وصلت فيه إلى جبهة الشرق. عام من المعاناة من أجل لا شيء. هجمات خلبية، ثم جاء الشتاء جليدياً في تلك الجبال، بعد ذلك دب الخلاف بين جميع من كانوا يشكّلون جيش الشرق، فلا يخفى على أحد أنهم كانوا حلفاء شكلياً. إلا أن كلاً منهم كانت لديه مصالحه الخاصة. فبالنسبة إلى الإنكليز، كان طريق الهند، وكانوا أقل اهتماماً بتسالونيك، ولو ترك الأمر لهم، لقادوا الجميع إلى مصر. ولم يكن الإيطاليون ليهتموا بها عدا ألبانيا. ولم يتوقف

اليونانيون عن التردد والمماطلة، بين من يريد مساندة الحلفاء ومن يريد خوض الحرب إلى جانب ألمانيا. باختصار، كان هناك فوضى على مستوى الرؤساء. وكان الأمر أسوأ بالنسبة إلى الجيوش. فكنا نتجمد في الشتاء، وفي الصيف نعاني من الملاريا والإسهال.

* هل كنت تحظى بإجازات؟

بدا وكأن مورلاك لم يعجبه السؤال. فأحنى رأسه:

- كلا، بكل الأحوال، لم أكن أرغب فيها.

قالها مغيراً بسرعة الموضوع مستأنفاً سرده:

- عام 1917، استأنفنا هجوم الشمال، كنت في القطاع الشرقي في مقدونيا. وفي مواجهتنا كان البلغار، كل ما عرفناه هو أن رومانيا كانت قد انهارت. أما الباقي، فلم نكن نفهمه، كانت أرض المعركة مؤلفة من وديان وممرات جبلية وتلال تطلق النار علينا. كان هدفنا هو نهر تشيرنا ولكن خصمنا كان محصناً.

* ربما كان يشبه ما رأيناه في فرنسا من خنادق وملاجئ.

- الانتظار على وجه الخصوص. كنا بعيدين ولم نكن نتلقى أي بريد، مررنا بتلك القرى الغريبة ذات المنازل البيضاء التي كانت على عكس ما نعرفه. كان من الضروري أن نأخذ حذرنا من الجميع. لم يكن أحد يحبنا، الله وحده يعلم ما إذا كان القرويون يروون النكات عند رؤيتنا، كنا نظن أنهم لم يكونوا بانتظار أحدٍ غيرنا. ثم بعد ذلك بيومين، أدركنا أنهم أبلغوا العدو، عندما لم يذبحونا بأنفسهم.

* هل كانت هناك جيوش أخرى من الحلفاء برفقتكم؟

- كنت سآتي على ذلك. برز وجه دوجو للحظة من زاوية الباب العليا.

على يسارنا كان هناك إندونيسيون، كان المساكين يتجمدون من البرد في هذا المناخ. لقد ذووا تماماً وأصبح لونهم رمادياً ولم يعودوا يستطيعون الحراك. كان من الصعوبة بمكان انتزاع ثلاث كلمات منهم.

* الأمر نفسه كان في أراغون.

- قال لي الرفاق أن أنتبه إلى غليوم، فقد عرف عنهم أنهم يأكلون الكلاب. ولكنه ذهب مرتين أو ثلاثاً إلى قطاعهم، ولم يقوموا بأذيته.

* هناك الكثير من المبالغة في ذلك، لم أرهم أبداً يأكلون الكلاب. قام مورلاك بحركة، وكان يريد أن يصل إلى المفيد.

- على اليمين كان هناك الروس وكانوا قريبين جداً حتى أن خطوطنا تكاد تتلامس. وإن تقدمنا في خنادقنا، فسنجد أنفسنا في خنادقهم. كانوا شباناً لطفاء وكانوا يعرفون ما الشتاء. لم يكن لديهم الكثير ليأكلوا، ولكن قيادتهم كانت توفر لهم الشراب، وفي الليل كانوا يعزفون الموسيقا. كثيراً ما كان غليوم يذهب إلى هناك. وكانوا يحسنون معاملته، وذات يوم جعلوه يشرب الفودكا وضحك الجميع لرؤيته عائداً يترنح.

كانت الشمس قد مالت فتقدم الاثنان نحو طرف المقعد ليبقيا في الضوء.

- كنت دائماً أذهب للبحث عنه في قطاع الروس. لذلك تعرفت على الكثير من هؤلاء الرجال. كان هناك شخص يدعى أفونينوف، يتحدث الفرنسية وأعجبتني مناقشته. كان جندياً بسيطاً، لكنه مثقف.

عمل كعامل مطبعة في سانت بطرسبرغ. وكانت لديه مشاكل مع شرطة القيصر، ولهذا اقتادوه قسراً إلى الجبهة.

* ألم يكن الضباط يراقبونه؟

- لم يكن هناك العديد منهم، كما ساد لديَّ انطباع أن جميع الروس الذين هنا، كانت لهم نفس القصة، كانوا يجتمعون فيما بينهم لمناقشة السياسة لساعات. وفي بداية عام 1917، دبّ فيهم الحماس. عندما علموا بأمر ثورة فبراير، كان أمراً لا يصدق، رقصوا طوال الليل، إلى حد تدخل معه ضباطنا، كي لا يستغل العدو المناسبة لضربنا. جعلهم خبر خلع القيصر كالمجانين. فلم يعودوا للمرابطة في أمكنتهم، حتى أن من يراهم يخال أنهم عائدون غداً إلى البيت.

* كيف كانوا يتلقون هذه الأخبار؟ ألم تقل إنكم كنتم منقطعين عن العالم؟

- نحن، وليس هم، هذا هو السؤال. أنت تعلم أن البلغار كانوا في مواجهتنا، وهم يتكلمون لغة قريبة من الروسية. كانوا يتفاهمون، كان البلغار، كما النمساويون والأتراك، يتلقون أخبار روسيا يوماً بيوم. فقيادة أركانهم فكرت أن بث المشكلات التي كانت تواجه روسيا، كانت أمراً جيداً لرفع الروح المعنوية للمقاتلين، وكانوا يعدونهم إن سقط القيصر، بأن روسيا لن تتأخر عن إنهاء الحرب.

* إذاً كان هناك تواصل بين الروس والبلغار، في حين كانوا وجهاً لوجه على الجبهات؟

- هذا ما فهمته، وهو ما أشعل كل القصة.

- 7 -

كان النهر منخفضاً، والتيار يتعثر بالحجارة، مولّداً شرائط من رغوة بيضاء غطت كل السطح تقريباً. أغصان الصفصاف، التي عادة ما تطفو على المياه في الربيع، تدلت في الهواء، وفي فروعها علقت رزم من طحالب قذرة.

جلس شاب القرفصاء في وسط النهر. قفز من حجر إلى حجر إلى حيث وقف بلا حراك في وسط التيار، حافي القدمين على الصخور المغطاة بالطحالب. ثبت أنظاره على الماء أمامه كطير جارح، حيث تماوجت سمكة ترويت بين نقاط الضوء المتراقصة على القاع الرملي. لوّح الرجل بعصا لها نهاية مدببة، انتظر برهة، ثم بحركة خاطفة رشيقة أصاب السمكة وسحب العصا من الماء، كانت السمكة تختلج حول العصا التي اخترقتها. نهض الصياد، ولكنه جفل فجأة مثل كلب. ألقى بنظرة على الضفة، فرأى ظل الشخص الذي يراقبه.

- لا تحاول الفرار، لويس! فأنا أعرف دائماً أين أجدك.

بالكاد رفع غابار صوته. كان جريان النهر ضعيفاً، يصدر خريراً

هادئاً. وفي صمت الغابة، كان لكلمات الشرطي وقع مختلف، وخاصة بالنسبة إلى أذن مدربة على الكشف عن أدنى الأصوات.

دنا لويس من الضفة، متنقلاً بخفة من حجر إلى حجر. وعندما وصل إلى الشرطي، وضع يديه خلف ظهره محاولاً بطريقة فجة إخفاء طريدته، مطأطئاً رأسه. كان صبياً في العشرين من عمره، أسود الشعر، أجعده، ينحدر حتى يغطي جبينه. معقود الحاجبين حتى يكادا يتصلان.

كان يحني ظهره، مرتعداً، عند وجود أشخاص. أما في الغابة فلنظراته تلك الفطنة التي لحيواناتها. كان يقتات على ما يصطاده. توفيت والدته قبل أن يبلغ من العمر عشر سنوات، ولم يُعرف له أب. تم إرساله إلى الميتم، إلا أنه هرب مرتين، ليعود دائماً إلى المنزل الذي ولد فيه، في أطراف الغابة، فانتهوا إلى أن تركوه يذهب. كان غابار يراقبه، كان يعلم أنه غير مؤذٍ، لكنه عرف أيضاً إغراءاته ونقاط ضعفه.

- أنت بارع، كما كنت دوماً. اقترب قليلاً لأراك.

توقفت سمكة الترويت عن الحركة، واستسلمت لمصيرها، أو ماتت بالفعل. كانت سمكة جميلة ذات جلد لامع. اخترقتها ضربة العصا تماماً من المنتصف.

- قل لي يا لويس، أنت الآن شاب عاقل، ومع ذلك فإنك تذهب باستمرار لرؤيتها.

رفع الصبي رأسه.

* لا، لا! أقسم لك.

-لا تقسم، فإنه لخير لك، خاصة وأنني أعرف كل شيء، فأنا أيضاً أراقبك، ماذا تعتقد؟

عبث لويس بالعصا التي ما زالت السمكة عالقة بها.

- اسمع، أعرف أيضاً أنك لم تأتِ بأي سوء، الأمر أقوى منك، إنما سيان. إن كنت لا تزعجها، فإن بإمكانك رؤيتها من خلال الأغصان إن كان هذا يرضيك.

نظر الشاب إلى الشرطي نظرة جانبية. ولم يفهم إلى أين أراد أن يصل.

- أريدك أن تساعدني يا لويس. أنت مدين لي، أليس كذلك؟

انتظر الآخر التتمة كي يتجاوب.

- أنت تعرف مورلاك، حبيب فالنتين.

التمعت نظرة كراهية في عيني لويس.

* لقد ذهب إلى الحرب، قال بحقد، كان لفظه سيئاً وصوته أجش.

- لقد ذهب، ولكنه عاد، وأنت تعلم ذلك.

أدار لويس رأسه.

- أنت تذهب كل يوم لرؤيتها، هل أنا مخطئ؟

لم ينبس الشاب بحرف.

- لا تحاول الكذب، فأنا أعرف عاداتك، تذهب كل يوم بجوار حديقتها لرؤيتها تنكب على مزروعاتها. وفي المساء، تتسلل خلف منزلها لرؤيتها وهي تحلب عنزتها. لا تحتج. إن كان سلوكك جيداً فلن أقول شيئاً.

* لم ألمسها ولا لمرة واحدة.

- ولكنك تخيفها هكذا. وهي على الرغم من كراهيتها للبزات العسكرية. أتت إليَّ تشتكي. لا بد وأنك أخفتها كثيراً.

* ولكن الأمر انتهى الآن.

- إنني أصدقك لويس. ولكن ليس هذا هو ما جئت من أجله.

* إذاً؟

- سأقول لك، وسيكون بإمكانك مساعدتي بأن تروي لي ما تعرفه.

حكّ لويس صدره بقبضته المربعة المكسوة بالشعر الأسود.

- هل لمحت مورلاك هناك منذ عودته من الحرب؟

لم تعجبه كثيراً هذه المحادثة. كانت ردة فعله عندما لا يروقه أمر ما هي الهرب. ولكن غابار ثبته بعينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين لفلاحٍ عنيد، وقامَ بإخافته.

* أظن ذلك.

- لا تختلق قصصاً لو سمحت. نعم أم لا؟

* نعم.

- عدة مرات؟

* نعم.

- كم مرة؟

* كل يوم.

توقف الشرطي، كما لو أراد حفظ هذه المعلومات في خزنة حديدية.

- هل تعرف أنه في السجن؟

اتسعت عينا لويس. عبرت وجهه ابتسامة شريرة، لكنه داراها على الفور.

* لا. ما الذي فعله؟

- ارتكب حماقة في 14 يوليو.

* ولهذا السبب لم يكن يأتي في الآونة الأخيرة.

- متى كانت آخر مرة رأيته؟

* لا أعرف بالتحديد. ربما ثلاثة أسابيع...

- هذا صحيح. لقد حضر إلى المدينة يوم العرض. وماذا فعل عندما جاء؟ هل تحدث إليها؟

* أوه، لا! صرخ الشاب.

شعر غابار أن ثمة حدوداً لم يتجاوزها مورلاك. فلو أنه فعل، لاتخذت الأمور منحىً مختلفاً، وبالنظر إلى العنف الذي ينطوي عليه لويس، كانت النتائج لتكون درامية.

- إذاً اشرح لي. ماذا كان يفعل؟ هل كان مختبئاً مثلك ينظر إليها؟

* أنا أختبئ أفضل منه. فهو لم يرني.

- وماذا عنها؟ هل تعتقد أنها لمحته؟

* لا أعتقد، فهو لم يكن يسعى وراءها.

- وراء من إذاً؟

* وراء الصبي.

تراجع غابار خطوة وجلس على حافة جذع مقطوع، ممدد بمحاذاة الضفة، ازداد الحر ليطال حافة النهر، بالرغم من البرودة المنبعثة من الماء. جفف جبينه بمنديل كبير مطوي بمربعات.

- هل أنت واثق مما تقول؟ هل كان يراقب الصبي.

* ولِمَ قد أكذب؟

- هل حاول التحدث إليه؟

* كلا.

- لم يتحدث إليه، أو أنه لم يحاول أصلاً؟

* لم يحاول أصلاً.

أطلق الشرطي تنهيدة. دائماً ما كان الحوار مع لويس محفوفاً بمطبات مماثلة. فالصبي لا يميز الفروقات الصغيرة. وهو يفهم الكلمات بمعناها الحرفي. ليس ذنبه، إنما كان الأمر متعباً.

- هل تعني أنه قد فعل ذلك؟ تكلم إلى الصبي، هل هذا ما قصدته؟

* نعم.

- كيف حدث ذلك؟

* في صباح أحد الأيام، كانت في المنزل. قال لويس «كانت» كما لو أن لفظ اسمها سيكون مؤلماً أكثر مما يستطيع تحمله.

- كان الصبي يلهو قرب القصر.

هكذا كان سكان المنطقة يطلقون على أطلال القلعة التي يقال أنها كانت سابقاً سكناً لأنييس سوريل[9]، ومع تحوّل المقر إلى أنقاض من الركام والعليق، أخذ الناس يهجرون هذه التسمية على نحو متزايد ما عدا لويس الذي ثابر على الحفاظ عليها.

9- أنييس سوريل (1422 – 9 فبراير 1450)، والمعروفة بلقب السيدة دي بوت، كان العشيقة الأثيرة لشارل السابع ملك فرنسا، وولدت له ثلاث بنات، تعتبر أول عشيقة ملكية معترف بها رسمياً. كما كانت موضوعاً للعديد من اللوحات والأعمال الفنية المعاصرة، بما في ذلك لوحة جان فوكيه: العذراء والطفل محاطين بالملائكة.

- هل تبعتهم؟

* طبعاً. أنت تعلم أن هذا الطفل أيضاً قطعة منها أيضاً.

فهم غابار أن المسكين كان يداعب حلم استحقاق عرفان، بل وربما حب فالنتين، من خلال حمايته لابنها.

- ماذا دار بينهما؟

* كنت بعيداً ولم أسمع ما قالاه، خرج رجلكم مورلاك هذا من مخبئه وتكلم مطولاً. وكان الصبي يسمعه، إلا أنه عندما أراد أن يمسك بيده، كانت ردة فعله عنيفة، وكنت لأفعل ما فعله.

- وهل حاول مورلاك مجدداً؟

* مرة واحدة فقط. لكن عندما لمحه الصبي لم يسمح له بالاقتراب. هرب مسرعاً.

- هل تظن أنه أخبر والدته؟

* لا أظن ذلك.

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

* لو حدث أن أخبرها، كانت لتمنعه من الذهاب بمفرده إلى الغابة في الأيام التالية. ولهذا السبب بالذات لم يقل لها: من أجل أن يستمر بالعدو حيثما يشاء. حسناً، لو كنت مكانه، فهذا حتماً ما كنت سأفعله.

هزّ الشرطي رأسه ثم نهض، اقترب من لويس وشده من أذنه. كانت الحركة التي كان نابوليون يقوم بها مع جنوده، كان لويس معتاداً على تخصيص كل شيء، وأخذها كإشارة على التشجيع والتهنئة.

- جهز نفسك لرؤيتي قريباً! قال مسؤول الإمداد.

كانت الجملة نوعاً من الشكليات، إذ أن لويس كان يعلم أنه قد تمر أشهر دون أن يسمع من غابار. اتخذ مظهراً محترماً ومهيباً قليلاً ليظهر له أنه فهم الدرس. ثم دون مقدمات، اختفى هو وسمكته.

*

بعد غروب الشمس، أخذ مورلاك والقاضي بالسير حول الباحة. واضعين أياديهم في جيوب سترتيهما.

- بعد ثورة فبراير، بدأ الروس يتشاحنون فيما بينهم.

* بين أنصار القيصر والثوار، على ما أعتقد؟

- لم يتبقَّ الكثير من أنصار القيصر، ربما بين صفوف الضباط، وبكل الأحوال فإنهم لزموا الصمت. كلا، كان الخلاف بين أنصار الحكومة المؤقتة، وبين السوفييت الذين يريدون متابعة الثورة. أفونينوف كان من أشد أنصار السوفييت.

* وأنت؟

- أنا؟ اضطرب مورلاك. كان يعلم أن الحديث سيدور عنه، وعن دوره في القضية، هكذا كان يفترض. مشكلته كانت من أين يبدأ، وكيف يفسر كيف وجد نفسه هناك.

- أنت تعرف، في البداية، لم أكن لأفكر أنني كنت أستخدم يوماً الكتب التي قرأتها.

* الكتب التي قرأتها لدى فالنتين؟

لم يشأ مورلاك أن يجيب، وشعر لانتييه بأنه قام بحركة فجة بسؤاله المباشر وغير المفيد.

- قرأت كثيراً خلال إجازتي. لقد غيرتني الحرب. لم أكن أعلم بوجود كل تلك الأمور. القذائف، الناس الذين يرتدون الزي العسكري، المعارك التي تخلف في بضع دقائق الآلاف من القتلى ممددين تحت الشمس. كنت مزارعاً بسيطاً، هل تفهم؟ لم أكن أعرف شيئاً. حتى لو كنت قد قرأت قبل الحرب، فلم تكن كتباً ذات أهمية. إلا أن الأمر اختلف عندما عدت في إجازة: كان عليَّ أن أجد الأجوبة. أردت أن أعرف ما استطاع الآخرون فهمه من الحرب والمجتمع والجيش، والسلطة، والمال، وكل تلك الأشياء التي كنت قد اكتشفتها.

* كم من الوقت بقيت في إجازة؟

- أسبوعين. كانت قصيرة جداً. ولكن ما لم أستطع قراءته من الكتب، حملته معي.

* ألم تكن كثيرة في جعبتك؟

- حملت معي ثلاثة.

* ما هي؟

استقام مورلاك ليعطيه العناوين كما لو كان يقرأ تلاوة من الكتاب المقدس.

- فلسفة البؤس لبرودون، الثامن عشر من بروميير لكارل ماركس، والأخلاق الأناركية لكروبوتكين.

* ألم تواجه مشاكلَ بسبب عناوين كتلك في حقيبتك؟

- في الحقيقة: لم تساور الشكوك أركان الحرب، إلا بعد الثورة الروسية. كما أنني اتخذت احتياطاتي. فمن الخارج كان الغلاف عبارة عن رواية عاطفية.

فكر لانتييه في والد فالنتين المفطور على الأساليب السرية التي تعلمتها الفتاة في وقت مبكر، فكان من حسن حظها أن تلتقي بمورلاك وتدخله إلى عالمها وتتبادل وإياه تلك الأسرار الخطيرة.

* وما الذي وجدته في هذه الكتب؟

- كنت أفهم ما يقولون عندما يقومون بتفسير العالم، ولكن فكرة الثورة لم تبدُ لي أكثر من حلم وردي، أو بالأحرى، وعد ماورائي، كالفردوس. ولكن بعد ما حدث في روسيا، فهمت أن كل شيء ممكن.

توقف ونظر إلى لانتييه مباشرة، كان في حالة من التجلي. لم يكن هناك فرح في ذلك، إنما فقط نوع من الإشعاع المنبعث من الداخل. كان هناك بريق في نظراته، وكان يتنفس بعمق، وتوردت بشرته بحمرة الدم. لم يعد مجرد ذلك الفلاح المحدود في أرضه إنما رجلاً متعطشاً للحرية والمستقبل. حتى ليخال المرء أنه مجنون، إن رآه على تلك الحال، دون أن يسمع ما كان يقول.

- لقد كنا في الدرك الأسفل، في المجارير. غرق العالم في الهمجية. في الوقت نفسه، وفي مكان ما، شاءت إرادة الشعب أن تتخلص من الطاغية! وكان من الضروري متابعة المهمة وأن تستمر الثورة، ليس فقط في روسيا ولكن في كل مكان. ولذلك، فإن أول شيء يجب القيام به هو إنهاء الحرب. إن قمنا بالثورة، فسيبقى الجنرالات وحدهم في الحرب، وستتمكن من محاربتهم بنفس الوسائل التي أسقطت نيقولاي الثاني.

* هل شاركت في أعمال الشغب؟

تفاجأ لانتييه بأنه لم يلحظ أي شيء من هذا القبيل في سجله

العسكري. بدلاً من ذلك، كان هناك تنويه لعمل من أعمال البطولة في عام 1917.

- كلا، أكد مورلاك.

* هل من أحد قام بذلك في وحدتك؟

- أفعال غبية، تصرف الكثيرون بأنانية، قاموا ببتر أعضائهم بغرض تسريحهم، معتقدين أنهم أذكياء، وأنهم قد ينجون بأرواحهم، إلا أن أمرهم قد انكشف، و تمت محاكمتهم، وأعدم البعض منهم. ما الفرق؟

شهد لانتييه خلال الحرب، حالات مشابهة في وحدته: فقد عامل مخبز شاب اثنين من أصابعه وهو يلوح بذراعه فوق الخندق خلال نوبة حراسة ليلة. كانت خطوط الأعداء قريبة للغاية. فهم جندي مسكين من الجبهة المقابلة ما يرمي إليه، وأطلق النار. كانت قصة جديرة بالازدراء، وكرئيس شعبة، لم يستطع لانتييه إلا أن يرسل الصبي للمحاكمة العسكرية. ولم يدرِ ما حلَّ به بعد ذلك.

- مع الروس، أصبح لدينا أفكار أخرى. واستطعنا أن نرى الصورة الأشمل.

تبدّى أخيراً ما هو مزعج في شخصية مورلاك، فحتى تلك اللحظة، لم يكن لانتييه يستطيع أن يحدد بدقة مصدر الشك الممتزج بالانبهار الذي كان السجين يوحي به. والآن فجأة، تجلى أمامه: كان ذلك مزيجاً من التحفظ وجنون العظمة، تواضعه المصطنع وقناعته أنه أكثر ذكاء من غيره. كان مورلاك قزماً تنهشه طموحات عملاق. بحيث لا يمكن معرفة ما إن كان من الأفضل لومه لِتَمَثُّلِهِ أفكاراً وقيماً كبيرة في شخصه أو السخرية من ادعاءاته باعتناقها.

- مع أفونينوف ورفاقه، عملنا على التحضير لخطة طموحة تشمل البلغار. كان مبدؤنا بسيطاً: فمن أجل أن تكون حركة المقاومة للحرب فعالة، كان لا بد من نشرها على جانبي الجبهة. وإلا، فإنها ستتحول إلى هزيمة لأحد الطرفين، وسيتهم أولئك الذين رفضوا القتال بالخيانة. لهذا، أردنا أن ننشر التآخي أولاً ومن ثم العصيان.

* وفي فرنسا أيضاً، قامت هدنة بين الجنود على الجبهة، لقد علمت بأمر مشابه حصل بمناسبة الميلاد.

- نعم، أضاف مورلاك، حصل هناك تآخٍ، إنما دون أرضية سياسية، ولذلك لم يستمر، هذا هو السبب الذي أردنا من أجله أن نعتمد على الأشخاص الذين يشاركوننا أفكارنا الثورية.

* هل كان هنالك من ضباط أو من أصحاب الرتب العليا، ممن قد يساعدونكم على ذلك أو يعتنقون أفكاركم؟ قوبل السجين بابتسامة ساخرة.

- لم نكن لنعرض أنفسنا لمخاطر غير ضرورية بمحاولة حشد أعداء الطبقة العاملة في صفنا. استخدمنا فقط أساليب الاختباء. فرسمياً، كنت أذهب إلى الروس للشرب والاستماع إلى موسيقاهم. وكان كلبي، يؤمن لي الغطاء: كنت أقول للرقيب أن غليوم كان كل الوقت هناك لأنه عثر على رفيقة، الأمر الذي لم يكن خاطئاً. فكان يسمح لي بالذهاب لإعادته.

* هل كان لدى الروس كلاب؟

- لا أعرف من أين جاءت، ربما كانت من المنطقة، على أية حال، كانت رمزاً لفوجهم، وأطلقوا عليها اسم ساباكا. كان غليوم أكبر منها

حجماً بكثير، ولكنه وجد طريقة لجعلها تحمل. غادرت قبل أن تضع جراءها، ولا أتصور كيف ستكون أشكالهم.

دخل دوجو إلى الباحة معلناً وصول وجبة غداء السجين، فعادا إلى الزنزانة. انتبه السجان إلى أن الاستجواب قد يطول حتى أجل غير مسمى، فجهز طاولة صغيرة مع طبقين وكأسين. جلس القاضي قبالة مورلاك واستمرا بنقاشهما أثناء تناول الحساء الفاتر الذي كان دوجو قد سكبه من علبة القصدير التي استلمها.

* إذاً، ما كانت الخطة؟

- كانت بسيطة إنما صعبة التنفيذ في آن معاً. كان هناك منطقة قريبة من فورت روبيل تتقارب فيها كثيراً الخطوط البلغارية وخطوطنا. ولم يكن الأمر كذلك في المناطق الأخرى، ففي تلك المنطقة الجبلية، كانت الوحدات معزولة ومتباعدة بعضها عن بعض. علم الروس عن طريق سُعاتِهم أن الوحدات البلغارية يجري تبديلها كل عشرة أيام. وكانت إحداها تضم الكثير من الجنود الذين كانوا من أنصار القضية. كانت الفكرة هي أن ننتظر ريثما تصعد تلك الوحدة إلى الجبهة، وعندما تتمركز، ستعطى الإشارة إلى البلغار لقتل رؤسائهم، وسنخرج إليهم من أجل التآخي. وسيتولى الرفاق نشر الخبر على طول الجبهة وتنظيم الانتفاضة. وستكون تلك نهاية الحرب وبداية الثورة.

* كل عصيدتك، ستبرد.

نظر مورلاك إلى صحنه، واستغرق هنيهة من الوقت للعودة إليه. بسرعة عبّ حساءه متعجلاً إنهاءه ليكمل.

* وكيف سارت الأمور في النهاية؟

اكفهر وجه السجين، ببطء وضع ملعقته، وانتزع قطعة من الخبز نظف بها صحنه.

- كما كان مخططاً لها في البداية.

* في البداية؟

ساد صمت. عاد مورلاك إلى تجهمه، واستعاد مزاجه المعاند.

- استغرق الأمر قرابة ثلاثة أسابيع من التحضير. كان عليَّ أن أجد مبرراً للذهاب إلى خطوط الروسية عند ساعة الصفر. كان هناك مشكلة في تناوب القوات البلغارية. وأخيراً، سار كل شيء حسب الخطة المرسومة في الثاني عشر من سبتمبر.

* هذا هو تاريخ التنويه الذي استحققته، على ما أظن؟ تجاهله مورلاك رافعاً كتفيه، وتراجع وهو ينكش سناً جانبياً بظفره.

- كانت ليلة عذبة، ففي النهار كان الحر شديداً، استراح الجميع مطمئنين، إلا أن توتراً كبيراً ساد في الأجواء. أصعب اللحظات كانت اجتياز خط التماس. لم يكن هناك لسوء الحظ قمرٌ في تلك الليلة، ولم تكن الرؤية واضحة. أحضرنا معنا المقصات لقطع الأسلاك الشائكة. وعندما يحصل الاتصال، كنا سنتمكن من إضاءة المصابيح والتنظيم. إلا أن البداية كانت الأخطر.

* كم فرداً كنتم؟

- من الجانب الروسي، اشتركت الوحدة بأكملها تقريباً في الانقلاب. أكد لي أفونينوف أن هناك ما لا يقل عن مئتي رجل من الأنصار في صفوف البلغار. كما أن التوقيت كان جيداً، فكان ضباطهم في اجتماع للأركان.

دخل دوجو ليأخذ الأطباق، ثم وضع تفاحة أمام كل منهما وخرج.

- حددنا الرابعة صباحاً موعداً لساعة الصفر. مما يسمح بأن ننظم صفوفنا قبل شروق الشمس دون أن نبقى طويلاً في الظلام بعد اتحاد الجبهتين.

* وما كانت الإشارة؟

- نشيد الأممية[10]. كان على الطرف البلغاري أن يبدأ الغناء، وأن نردد ككورس. كان الموقعان قريبين بحيث يمكن سماع كل شيء، خصوصاً في الليل. عند الساعة الرابعة سمعنا اللحن يتصاعد من الجبهة المقابلة. لا يمكنك تصور ما كان لذلك من وقع علينا.

بدا للقاضي أن عينَيْ مورلاك كانتا دامعتين. على أية حال، قام بإخراج منديل وخبأ انفعالاته بتنظيف أنفه.

- بعد ذلك، حدث كل شيء بسرعة، لم نفهم ساعتها ماذا كان يحصل إلا بعد أن استجمعنا الأحداث.

تمخط ثانية في منديله، بصوت أعلى هذه المرة، مستعيداً مزاجه المعاكس:

10- كتب نشيد «الأممية» تخليداً لذكرى كومونة باريس الاشتراكية التي تأسست في مارس من عام 1871 الشاعر الفرنسي التقدمي أوجين بوتييه. استخدمت الترجمة الروسية كالنشيد الوطني للاتحاد السوفييتي بين عامي 1917 و1944، حيث تم استبداله بعد ذلك بنشيد السوفييت.
لقد تُرجم النشيد إلى اكثر من مائة لغة حول العالم ليربط أعضاء قوميات وثقافات وأديان مختلفة تحت راية وحدة مصير الشعوب جميعا، حسب الفلسفة السياسية اليسارية، ولا زالت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية والاناركية في أنحاء العالم تُنشد كلمات الشاعر الفرنسي حتى هذا اليوم.

- لن أدخر لك التفاصيل. حدث كل شيء بسبب غليوم. كان معي، كالعادة. وعندما شعر بأحد يتحرك من الجهة المقابلة، قام بفضل رؤيته الجيدة وغريزة كلب الصيد التي له، بالقفز على السلم والخروج من الخندق. مهاجماً البلغاري الذي كان يتقدم بحسب الخطة... لم يكن الكلب على علم بالمخطط، قال ساخراً.

- قفز الكلب عليه، لقد سبق وفعل كذلك عند الاشتباك بالحراب، وقد لاقى استحساناً، بالنسبة إليه، فالعدو هو العدو، أليس كذلك؟ لقد كان كلباً وفياً. ارتسمت على جبين مورلاك تكشيرة رهيبة.

* وفي، نعم، كرر لانتييه وقد أخذ يفهم.

- صرخ البلغاري، في سواد الليلة المظلمة شعر الجميع بالذعر. حاول الرفاق الأكثر انخراطاً في العملية بأن يصيحوا ألا شيء هناك. لكن الآخرين لم يصدقوهم. ظنوا بأننا قد نصبنا لهم كميناً. وبدأ البعض بإطلاق النار. وكان هناك رد من طرفنا. تم إطلاق طلقات إشارة ضوئية، فتحرك الرماة سريعاً من جانبنا لإمطار الجبهة المقابلة كما يمكنك أن تتخيل...

* كيف كنت تطلق النار؟

- كنت مع أفونينوف، وكنا مذعورين، سمعنا الرفاق في البداية، إلا أن الأمور اتخذت فيما بعد منحى مختلفاً، فكانت الحرب مجدداً. كل أراد إنقاذ نفسه. وقام البعض بإعطاء إشارة الهجوم، خرج الروس، وكنت معهم، كان البلغار قد أعدوا للتمرد بعناية، مستبعدين جميع أفراد صف الضباط من بين صفوفهم. فعمت الفوضى في خطوطهم، وتم اختراقهم

دون مقاومة. كان المشهد مروعاً. لقد قتلنا رفاقاً كانوا على وشك الانضمام إلينا. قبل بضع دقائق، كنا نستعد للتآخي، وعند الهجوم، قتلنا منهم كل من ظهر في وجهنا.

* هل جرحت في النهاية؟

- لقد اخترقنا ثلاثة خطوط دفاعية بظرف ساعة تقريباً وهو تقدّم لم يكن رماتنا ليتوقعوه، خرجت الأمور عن السيطرة، وأصبت بشظايا في الجزء الخلفي من الجمجمة. لم تكن عميقة لكنها بدت لي كذلك. استيقظت بعد ثلاثة أيام في تسالونيك، في مستشفى.

- 8 -

– وهكذا أصبحتُ بطلاً. قالها مورلاك وهو يقضم تفاحته بخبث.

* بسبب كلب في الواقع، استبقه القاضي، فأومأ السجين برأسه وهو يمضغ.

* ألهذا السبب كنت تحقد عليه؟

– لم أعد أريده، قال مورلاك وهو يبصق بذرة التفاح، عندما أيقظوني في المستشفى، كان الأمر مختلفاً، عندما أيقنت ما حصل، اجتاحتني رغبة في أن أجهز عليه. وعندما استطعت النهوض، رأيته في الأسفل رابضاً في الفناء ينتظرني، تخيلت لليالٍ، طوال فترة النقاهة، كيف سأنتهي منه. رمى مورلاك ببقايا التفاحة على الطاولة.

– لكنني لم أستطع فعل ذلك، أولاً كنت مسمراً إلى سريري، وثانياً كنت بطلاً كما ترى. أتى إليَّ بعض الضباط بالتنويه الموقّع من ساراي شخصياً، وعندما تم تعيين الجنرال غيوما خلفاً له، أتى لزيارة المشفى ودخل غرفتي مع أركان حربه لتهنئتي. كان الجميع يحدثونني عن كلبي، إذ كانوا يعلمون أنه كان معي على الجبهة. كانت الممرضات تطعمنه في

الفناء وتنقلن لي أخباره. لن يفهم أحد لمَ قد أقدم على قتله بطلقة مسدس. وهو بالذات ما كنت أفكر فيه ليل نهار. قال ساخراً بنفس النبرة التي كانت تثير حفيظة لانتييه.

- قضيت الشتاء بأكمله في الغرفة محاطاً بالعناية، ولكن مع تحسن الطقس، ظن الأطباء بأنهم يسدون لي معروفاً بسماحهم لي بالخروج للتنزه. وأحضرت لي الممرضات غليوم لمرافقتي! كنّ قد اشتركن واشترين له طوقاً جميلاً. الأمر الوحيد الذي كان يعزيني هو رؤيته ممتعضاً ومقيداً بالطوق.

* ولكنه كلب، ولا يمكنك إلقاء اللوم عليه...

- هذا ما أدركته في نهاية المطاف، وقد استلزمني ستة أشهر. كنا في منتصف الصيف، أتذكر ذلك النهار كما لو كان البارحة. كنا جالسين في ظل شجرة صنوبر وارفة، هو وأنا. نظرت إلى رقبته المتقشرة، فهو أيضاً أصيب في تلك الواقعة، وكانت جروحه تندمل ببطء. وفجأة أصبت بدوار. أحسست أن الدنيا تدور من حولي، ولكن كان ذلك فقط في رأسي: كل شيء ترتب في رأسي فجأة. كانت ثورة من الأفكار. مشى مورلاك باتجاه الجدار الأوسط للزنزانة ثم استدار فجأة:

- كان هو البطل، هذا ما فكرت فيه، ليس فقط لأنه تبعني إلى الجبهة وجرح. كلا، فالأمر أعمق بكثير، وأكثر شمولية. كانت له كل الخصال التي على الجندي أن يتحلى بها. كان مخلصاً حتى الموت، شجاعاً، لا يرحم الأعداء. ينقسم العالم بالنسبة إليه إلى خير وشر. ويقال في تلك الحال: ليس لديه إنسانية، طبعاً، فهو كلب في نهاية المطاف... ولكننا لم نكن كلاباً، وعلى الرغم من ذلك، كان علينا أن نمتلك تلك المناقب.

التنويهات، والنياشين، ورتب الشرف والترفيعات، كلها كانت لمكافأة أفعال الحيوانات. أصبح مورلاك واقفاً قبالة لانتيه، ولكنه كان ينظر إلى أبعد وأعلى مما في هذه الزنزانة الضيقة.

- على العكس، فالتجلي الوحيد للإنسانية، هو نشر التآخي بين الأعداء وإعلان الإضراب في الحرب، لإجبار الحكومات على السلام، كانت تلك الأفعال، الأكثر شجباً واستحقاقاً للموت من أجلها فيما لو كشف أمرنا.

انتظر لحظة ليهدأ، وعاد للجلوس مرة أخرى:

- عندما فهمت ذلك، توقفت عن كره غليوم. لم يكن لدي سبب لأحبه أيضاً. لقد أطاع لأنها طبيعته، وهي ليست طبيعة بشرية. كان ذلك عذره الوحيد. في حين أننا نحن، من يتم إرسالنا إلى المذبحة، لم يكن لدينا عذر. بكل الأحوال، قررت في هذه اللحظة ما سأفعله في المستقبل.

بقي لانتييه صامتاً خلال ذلك الاعتراف الطويل. كان مضطرباً من الداخل، ففي أعماقه كان يفهم كل ما قاله مورلاك ويقره. في حين أنه لو مثل أمامه بتهمة الفرار من الجيش أو التمرد، لكان أدانه دون تردد.

كان السجين مستنفداً بعد هذه الاعترافات. جلس على حافة سريره، يداه تتدليان وعيناه فاغرتان، ولم يكن القاضي بدوره أكثر يقظة. أحس بضرورة الخروج من هذه الغرفة معدومة الهواء، والمشي وترتيب الأفكار. آن الأوان بعد أربعة أيام على بداية التحقيق للتوصل إلى نتيجة قاطعة في تلك القضية. ليس عليه بعد الآن، أن يعول على تلك الشخصية وعلى

الدور الذي لعبته، كان معروفاً عن لانتييه مقدرته على البت في الأمور واتخاذ القرارات، حتى في أكثر القضايا حساسية. إلا أنه لم يتوصل هذه المرة إلى ذلك. فكلما تعمق بها، ازداد رأيه تشوشاً. حتى أنه تساءل للحظة ما إن كان مورلاك قد تعمد تشويش أفكاره، إلا أن صدقه في الاعترافات نفى ذلك. دفعه هذا الانزعاج إلى أن يقطع التحقيق وينصرف قائلاً بجفاء:

* جهز نفسك في الغد للتوقيع على أقوالك.

وعندما وجد نفسه في الخارج، في ساحة ميشليه التي لا تزال تحتفظ بحرارة شمس النهار، مر بيده على وجهه ونظر حوله كمن استيقظ من كابوس. أول ما رآه كان غليوم، مرابضاً تحت الأشجار. تبعه الكلب، دون نباح، بعينيه، إلى أن انعطف عند زاوية الشارع.

*

لم تكن فالنتين تدخن عادة. إلا أن ما أقدمت عليه، تركها في حال سيئة، فاختارت أن تفعل كي تسترخي. مرر لها لانتييه علبة التبغ، وسعلت وهي تعبّ نفساً طويلاً من سيجارتها سيئة اللف. التقى بها عند دخوله إلى بهو الفندق إذ جاءت تلتمس التحدث إليه. إلا أنها هذه المرة لم تحضر من أجل مقابلة مختصرة. كانت تريد أن تسر له. بجرأة خجولة، طلبت منه دعوتها إلى العشاء. لم يكن يأبه لما سيقوله الناس، وهي كذلك أيضاً، على ما يبدو. دعاها إلى المطعم حيث قابل المدعي. كانت الصالة هذه المرة خالية تماماً. حاولت أن تبدو حيادية إلا أن عينيها كانتا تلمعان، مسدت القماش الأبيض الناعم لمنديلها كما لو كانت فرواً لحيوان ناعم.

- ليس من عادتي أن أسر إلى أشخاص بزي عسكري، مؤكد أنك

قد قمت بتحرياتك، وتعلم من أين أنا. كانت فالنتين قد شربت نصف زجاجة النبيذ خلال ربع ساعة. لم يرغب لانتييه بأن تعتقد أنه يدفعها للسكر. ولكنها كانت تعلم ما تقوم به. وعلى الرغم مما قد يبدو عليه الأمر من غرابة، إلا أنها كانت تسيطر على نفسها أكثر مما لو لم تكن تشرب.

- عندما قابلته، كان قد خرج توّاً من المزرعة.

كان الحديث يدور حول مورلاك بطبيعة الحال. وكان لانتييه يتمنى لو لم يكن كذلك. كان يرغب في أن يكون بمفرده وأن ينسى هذه القصة. ولكن هكذا كان الأمر: لن ينتهي ما لم يذهب إلى النهاية ويصغي إلى ما لديها.

- ما الذي أعجبني؟ لِمَ أنا مهتمة به؟

لم يسألها لانتييه شيئاً. فهم لانتييه مع هذه الحالة من السؤال المفترض، أنها سكرت بعض الشيء. فقد كانت في الواقع تتحدث إلى نفسها.

- لم تكن له هيئة فلاح، فهناك أفراد يعيشون خارج طبقتهم. الأمر يبعث على الطمأنينة، ألا ترى ذلك؟ لقد حدثوني طويلاً عن صراع الطبقات. طوال طفولتي، لم يكن والدي يحدثني إلا عن ذلك. لقد تقبلت الفكرة. تلك كانت الحقيقة، ولا يجب إنكارها. ولكنه توفي ووجدت نفسي هنا، في الريف، قلت أن ذلك لم يكن كافياً. هناك أيضاً من الأشخاص ما تدفعهم قصتهم لأن يغيروا طبقتهم، مثلي أنا. وآخرون كما لو كانوا يعيشون خارجها، من خلال ذواتهم بشكل ما.

لم تكن فالنتين قد مست يخنة اللحم في صحنها. ربما لم تكن معتادة على تناول اللحوم والصلصات.

- عندما تعارفنا، بالكاد كان جاك يحسن القراءة. وقد تعلّم من أجلي، عرفت ذلك الأمر، وكان يزعجني في الوقت نفسه. أحببت فكرة أنه قام بمجهود من أجلي. فقد كان ذلك برهاناً على حبه. لم يكن يعرف كيف يعبّر عن حبه ولكنه قام بذلك من أجل أن يعبر لي عما شعر به.

* ماذا كان يقرأ؟

- أي شيء. روايات، على وجه الخصوص. لم يكن يخبرني بما كان يفضل. كنت فقط أرى الفراغات التي يتركها على رفوف مكتبتي عندما كان يغادر. لطالما عرفت كتبي. على الرغم من أنها لا تبدو منسقة وفق ترتيب معيّن. ولكنني كنت أعرفه.

بدا نحولها أكثر وضوحاً في هذا الموسم الحار. كانت ترتدي سترة صوفية صغيرة بلا أكمام سيئة الحياكة فوق فستانها، أجبرتها الحرارة التي يولدها النبيذ على خلعها، فتمكن لانتييه من رؤية عضلات عنقها البارزة وأوردتها الجوفاء التي انزلقت عليها أشرطة حمالات صدريتها.

- كانت لدي رواية إيلوييز الجديدة لروسو، وكان والدي يرى فيه مفكر التنوير، ولكنني كنت أعلم أن جاك احتفظ بها مطولاً لسبب آخر، لقد كان رومانسياً، دون أن يدري، وكنت أحب فيه ذلك.

* ألم تتكلما في السياسة؟

- نهائياً، حتى هذه اللحظة. أتذكر أننا عند إعلان الحرب، قمنا بمناقشة الوضع، وكان ساذجاً كلياً. للأمانة فهو لم يكن يعرف شيئاً. كان فلاحاً حقيقياً، وكان من الطبيعي بالنسبة إليه، شاء أم أبى، أن يأخذوه للقتال. حاولت أن أكلمه عندما ذهب. ولكنني فهمت أن الأمر سيكون

بلا جدوى. رأيت نفسي أقوم بأشياء لم أتخيل أنني قد أقوم بها. لقد قمت بحياكة وشاح له. أردت أن يذهب حاملاً معه شيئاً مني، وعندما رافقه كلبي كنت في غاية السعادة.

* هل كان غليوم كلبك؟

- لم يكن هذا اسمه، كان كلب عمتي، أو بالأحرى، ابن كلبتها العجوز بريارد. لقد قمنا بإغراق البقية، إنما هذا، فقد أبقت عمتي عليه من أجلي، وأسميته كيرو.

ضحكت إنما ليس طويلاً، فلم تكن تسمح بأن تظهر أسنانها، كانت تفتقد لسن جانبي، وكانت مدركة أنه ليس جذاباً.

- كان كلباً يحب الرجال. كلما حضر ساعي البريد كان يتبعه، وكانت تمر أيام قبل أن يعود. وعندما بدأ جاك بالحضور إلي، كان ذلك أشبه باحتفال بالنسبة إليه.

* هل طلبت منه أن يأخذه إلى الحرب؟

- أتعتقد ذلك؟! لقد ذهب من تلقاء نفسه. وكنت سعيدة بذلك.

* وهل كان يرسل إليك أخباره؟

- طوال وجوده في فرنسا، كنت أتلقى رسائل كل أسبوع. وفي أحد الأيام، عاد.

فرغت زجاجة النبيذ. تردد لانتيبه بأن يطلب زجاجة أخرى. كانت فالنتين تفتت الخبز وتتناول لقيمات صغيرة من يخنة الملفوف.

- كنا في أواخر ديسمبر. كان الجو بارداً جداً. البرد رطب هنا. بقينا في الدفء طوال اليوم وطوال الليل. أشعلت كامل مؤونتي من الحطب

الذي كنت قد خزّنته من أجل الشتاء. إنما لا يهم. كل ما أردته هو أن يكون مرتاحاً.

* هل لاحظت أنه تغير؟

- كلياً. كما لو كان شجرة من دون أوراق، قاسية وجافة، لم يعد يبتسم، وكان يتكلم كثيراً.

* عن ماذا؟

- عن المعارك، على الرغم من أنه لم يكن على الجبهة بعد في ذلك الحين، عن جميع هؤلاء الرجال الذين اكتشفهم في الجيش، عن الأسلحة المهولة التي اخترعت لقتل البشر. لم يكن يفهم شيئاً. كانت الحرب لغزاً لم يكن ليتصوّر وجوده. لذا أراد أن يعرف. عن السياسة والاقتصاد والشعوب والأمم، كان يطرح الأسئلة حول كل شيء.

أمسكت بكأسها ونظرت بأسف إلى ما تبقى من نبيذ في قعره. فلم يجد لانتيه بداً من طلب زجاجة أخرى.

- لم أكن أرغب في التحدث إليه عن تلك المفاهيم المجردة. فقد تكون عصية على الفهم. كما أنني كنت عاشقة، ولم أكن أريد أن أفكر فيما عدا ذلك. كنت أعلم أنه لن يبقى هنا لوقت طويل، أردت أن أكون سعيدة. أردت أن أقبله، أن ألمسه، أن أضمه إلي، فاكتفيت بأن أنصحه بقراءة بعض الكتب. فبدأ بقراءة كتب سياسية لم يكن حتى ذلك الوقت يهتم بها. وأنا في تلك الأثناء، كنت أنظر إليه، وأمطره بالقبل، وأغمر نفسي بدفئه.

* كم من الوقت مكث؟

- أسبوعين. أصبحت حاملاً بالنتيجة. كنت أعلم أن هذا ما سيحدث. وأردته، أستطيع أن أحدد تقريباً متى تكوّن طفلنا. ولكنني لم أخبره.

عادت النادلة بزجاجة أخرى من النبيذ. ملأت الأقداح كأنها تقوم بالتشفي من أحد، وأوقعت القليل منه على الطاولة دون أن تعتذر.

- مضى حاملاً معه ثلاثة كتب.

* برودون، ماركس وكروبوتكين.

- لقد قال لك.

للمرة الأولى منذ بداية حديثها، نظرت فالنتين إلى لانتييه باهتمام، وشعر بأنها لاحظت وجوده.

* وبعد ذلك، قال لانتييه، ذهب مع جيش الشرق.

بدت فجأة متعبة للغاية. اكفهر وجهها فجأة كما لو أن ألماً عاد ليتملكها من الداخل.

- هذا ما أبلغني به، كنت يائسة. فطالما كان في فرنسا، كنت أشعر بأنه لايزال قريباً. إنها الحرب في اليونان، فكانت أمراً مختلفاً. انتابني إحساس بأنه لن يعود. أرسلت إليه رسالة أقول له فيها إنني أنتظر طفلاً، شعرت بأن عليه أن يعلم قبل أن يرحل. ربما كنت أرغب في أعماقي في أن يجد طريقة ليبقى إلى جانبي.

* وكيف كنت تحصلين على أخباره؟

- لقد أجابني بأنه أمر جيد، وأن عليَّ أن أدعوها ماري إن كانت فتاة، وجول إن كان صبياً، في حال ولد قبل عودته.

ضحكت بعصبية.

- قد قلت لك: لا يعرف كيف يعبر عن مشاعره.

أحس لانتييه أنه رأى دمعة تلتمع في زاوية عينها، إلا أنها قامت بحركة برأسها لإرجاع شعرها إلى الخلف وإخفاء كل شيء.

* حسناً، لقد عرفت أنه لم يكن هناك سوى أمل واحد: أن تنتهي الحرب بأسرع ما يمكن، ابتعدت عن رفاق والدي ما استطعت، ولم أعد أرغب في معرفة أخبارهم، لقد عانينا الكثير جراء السياسة، إلا أنني غيرت رأيي فجأة. فهم كانوا الوحيدين الذين قاتلوا ضد الحرب، والذين صرحوا جهاراً بأنها وصمة عار، الذين حللوا أسبابها، وانكبوا على معالجة الشر من أصله، كانوا أولئك الطوباويين، المناضلين الاشتراكيين الذين كنت أحتقرهم خطأً. كتبت لأحدهم واسمه جاندرو، وكان عرّابي. وقد حاول أن يلتقي بي بعد وفاة والدي إلا أنني لم أجبه أبداً. لحسن الحظ، كان عنوانه لا يزال هو نفسه، لم يتغير.

دخل ثلاثة رجال إلى الحانة، التي يفصلها عن المطعم جدار من الزجاج المغشى لا يصل إلى السقف. كانت تسمع أصوات ضحكاتهم العالية وحديثهم مع صاحب المحل.

- كان جاندرو هذا رفيق جوريس[11]. وبعد اغتيال الأخير، بقي وفياً للأفكار السلمية. وكانت لديه مشكلات مع الجيش.

11- **جان جوريس** (بالفرنسية: Jean Jaurès): قائد اشتراكي فرنسي ولد سنة 1859 واغتيل سنة 1914 لمعارضته دخول الحرب ومواقفه السلمية. كان من خريجي مدرسة الأساتذة العليا وكان خطيباً مفوهاً وله مقالات عديدة. دفن في مقبرة العظماء بباريس بعد اغتياله بعشر سنوات، في سنة 1924.

كان لانتييه مسروراً لرؤية أنها لم تعد تعتبره عسكرياً. وأنها كانت تثق به وتضع الأمور في نصابها.

- تابع قيادة مجموعة ناشطة ضد الحرب. وكان لديه نشاط رسمي مع جريدة مراقبة إلى حد ما. ولكنه أيضاً كان يأخذ على عاتقه دعم كل المناضلين السلميين ضد الحرب، خصوصاً الغرباء الذين كانوا مضطرين إلى التخفي.

* ألم تكوني تخشين المضايقات عندما كتبت له؟

- أية مضايقات؟ أنت تعلم أنني كنت دائماً مراقبة، بسبب والدي. ولكن الشرطة تعلم أنني لم أفعل ما هو خطير، وبكل الأحوال، لم أذكر له شيئاً مهماً في الرسالة، سوى أنني أردت رؤيته، لأنه قبل كل شيء، عرّابي.

* وهل أجابك؟

- لقد أرسل أحدهم، شاباً صغيراً من كريزو، قطع مئة كيلومتر للتحدث إلي. مكث لديَّ يومين، ورأى أين أعيش، وفهم ما هي الخدمات التي أستطيع أن أقدمها.

* ألم يفضلوا أن تستقري في المدينة؟

- على العكس. لقد كانوا بحاجة إلى مخابئ للفارين في قلب الريف وللذين يريدون أن يتواروا نهائياً عن الأنظار ويتم نسيان أمرهم.

* هل كتبت ذلك لمورلاك؟

طلبا قهوة، وقامت بتحريك فنجانها التي ألقت فيه بقطعتين من السكر.

- كلا، للأسف. لم أكن أريد له أن يقلق. فعلت هذا من أجل نفسي

كما ترى. من أجل أن أشعر أنني ذات فائدة، من أجل المشاركة، حتى ولو قليلاً، بتقصير أمد الحرب.

* هل كان قد مضى إلى اليونان؟

- لم أكن أعرف، لم يعد البريد منتظماً. ومن ثم اقتادوا جاك من مخيم إلى آخر، كل مرة أكثر نحو الجنوب. وأخيراً، انتهى بهم المطاف في طولون. لكن الإبحار كان دائماً يؤخر، بسبب الطوربيدات والغواصات المعادية. ارتسمت على وجهها تكشيرة، كان صياح السكارى يتردد في الحانة ويغطي على صوتها فقد كانت تتكلم بصوت منخفض.

- بكل الأحوال، لم يضع غوردو وقته. سلمني حزماً من المنشورات السرية التي اضطررت إلى إخفائها، في انتظار توزيعها. وأرسل إلى منزلي زوجين بلجيكيين فرا من أحد معسكرات الاعتقال. وخلال تلك الأشهر الستة، كان هناك أناس في المنزل كل الوقت تقريباً.

* وماذا عن مورلاك؟ ألم يكن على علم بذلك بعد؟

أحنت فالنتين رأسها. وكأنها عادت لتعيش تلك الفترة المؤلمة. وفرقعت بعصبية مفاصل أصابعها.

- لم أقل له أي شيء، فقد كان من المستحيل، منذ أن أصبح الأمر واقعاً، أن أرسل إليه تفاصيل عبر رسائلي. كانت هناك رقابة عسكرية... إنما كان من الأفضل لو أخبرته بكل الأحوال. لجنّبه ذلك على الأقل أن يكتشف الأمر بنفسه.

* أن يكتشف الأمر؟ وكيف ذلك وهو بعيد؟

- لقد عاد.

* هل تقصدين القول أنه حظي بإجازة ثانية؟

- في يوليو، قبل الإبحار بقليل، لقد نجح في أخذ إجازة لمدة ثلاثة أيام. لم يقل إلى أين كان سيذهب، فلو عرفوا، لما كانوا ليمنحوها له. لقد قام بالمستحيل، بقفزه من قطار بضائع إلى آخر، وسرقته حصاناً، وبقطع الكيلومترات الأخيرة المتبقية سيراً على الأقدام حتى اهترأ حذاؤه. عرفت كل هذا بعد أن...

ضحكت، إعجاباً، ندماً ويأساً.

- وصل فجراً. اختبأ خلف جدار حديقة المزروعات. أعرفت أين هي؟ أراد أن يفاجئني، أخذت فالنتين نفساً وعدلت من جلستها لتستعيد قواها. في هذه الأثناء، كان جاندرو قد أرسل إليَّ عاملاً ألزاسياً مطلوباً لارتكابه عملاً تخريبياً. كان صبياً أشقر طويلاً وعذباً. كان يتكلم قليلاً ويعينني كثيراً. إذ كانت هناك أشغال في الحديقة لم أكن أستطع القيام بها بسبب الحمل. ألبير هذا كان يعرف كيف يعتني بحديقة المزروعات، ولم أكن بحاجة حتى إلى أن أقول له ما يفعل.

* ليس لديك سوى غرفة واحدة، أين كان ينام؟

رفعت رأسها بذعر.

- معي. لم نكن نفعل شيئاً. بكل الأحوال، كنت على وشك الولادة. ولكن، لا أعرف إن كان المرء يستطيع أن يفهم ذلك، كنت بحاجة إلى وجوده. كنت ألتصق به. وبهذا لم أكن وحيدة. ولم يكن طفلي كذلك. من الغريب قول هذا.

* وماذا عنه؟ هل كان راضياً؟

– أظن ذلك، لقد كان غاية في الحنان. كان يغمرني بالقبلات. وكنت أحس برغبته أحياناً، إلا أنه لم يفرض عليَّ شيئاً البتة. كان يقول لي إن الحنان وحده يكفيه. كان يعاني كثيراً لكونه بعيداً عن عائلته المكونة من نساء: أمه وأخواته الأربع.

* هل وجدكما مورلاك سوية؟

– لقد رأى ألبير يخرج من المنزل، لأنه يستيقظ دائماً قبلي من أجل أن يغتسل قرب البئر.

* وهل كان الصبي يعلم أن لك حبيباً ذهب إلى الحرب؟

– كان يشك، نظراً لحالتي. ولكن القاعدة بين الرفاق تنص على الكشف عن أقل قدر ممكن من المعلومات الشخصية، خشية الإدلاء بها خلال التحقيق.

* هل تبادلا الحديث؟

– عندما ضبط ألبير الجندي في حديقة المزروعات، أراد أن يعرف ماذا جاء يفعل. سأله مورلاك إن كنت في المنزل. أجابه الآخر بأنني لا أزال نائمة.

عقدت فالنتين منديلها حول أصابعها، وشدّت، شدّت حتى توقف الدم عن التدفق. بدا ما فعلته مؤلماً للغاية.

– سأله ألبير إن كان لديه رسالة ليبلغني بها. اعتدل جاك في وقفته. ونظر لبرهة إلى الباب المغلق وقال «كلا». ثم مضى.

* ألم تريه؟

– كنت متعبة للغاية يومها. كان الطفل يتحرك كثيراً. لم أنم جيداً.

استيقظت بعد ساعة. وكان ألبير قد مضى ليجز العشب للأرانب، ولم يخبرني بزيارة مورلاك إلا ساعة الغداء. حينذاك كان الأوان قد فات للحاق به.

نظر إليها لانتييه، على الرغم من هزالها، وافتقارها للعناية، آثار التجارب على وجهها، كان لديها ألق يجعلها جميلة، كنارٍ لا تريد أن تخمد، نور يتوهج حتى وإن كانت الظلمة دامسة.

* هل كتبت له؟

- بالطبع. ولكن دوماً وبسبب الرقابة، لم أكن أستطيع أن أقول له من هو. بكل الأحوال، فلم أكن متأكدة من أنه استلم رسائلي.

* ألم يعد يرسل إليك الرسائل؟

- أبداً.

* هل أخبرته بولادة ابنه؟

- عندما ولد جول، كتبت له متأخراً قليلاً، لقد استطعت أن ألتقط صورة ضوئية في المدينة، ولم أعلم ما إذا كانت قد وصلته.

هذه المرة، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها، لم تستطع حبس دموعها، فانهمرت بصمت وانسابت كقطرات المطر على سطح خشبي جاف. سمحت لدمعتين أو ثلاث بأن تنهمر قبل أن تحول دون ذلك. مرت بمنديلها على وجهها، ثم تابعت وهي تنظر إلى لانتييه في وجهه مباشرة:

- أوكد لك يا سيدي، أنني لم أتوقف أبداً عن التفكير به. لم أحب سواه. أحلم به. أحياناً في ليالي الشتاء، أخرج في البرد، دون أن أتدثر، دون أن أشعر بالصقيع، وأنادي باسمه، لعله يظهر في حديقة المزروعات

ويعود إليَّ. أغمض عينيَّ وأحس بتنفسه، برائحته... قد تخالني مجنونة.

أخفض لانتبيه ناظريه. فدائماً ما يخلّف نداء امرأة عاشقة إحساساً هائلاً بالضعف لدى الرجال.

* ألم تعلمي بعودته بعدما عاد من الحرب؟

- ليس قبل أن يرتكب تلك الفضيحة التي اعتقل على إثرها.

خرج السكارى من القاعة المجاورة يتخبطون راقبت النادلة من خلال الباب الموارب، ما إذا كان عليها أن تحضر الحساب.

- أنا أعول عليك، قالت فالنتين، وهي تحدّق باهتمام في عيني القاضي.

- 9 -

قبل أن يبدأ المرحلة النهائية في التحقيق، أحس لانتييه بحاجة إلى أن يقوم بنزهة طويلة في الريف. استيقظ في الفجر، ومضى باتجاه الشمال، حيث تمتد الغابة الكبرى التي تصل إلى بورج. كانت معظم أشجارها من السنديان. زرعت أقدمها في عهد لويس الرابع عشر.

ومع التقدم في دروب الغابة، يلاحظ المرء تنظيماً غير متوقع. فبدلاً من فوضى الجذوع، بدا لوهلة أن هناك صفاً من الأشجار المنتظمة يوحي بأنه ينتهي عند الأفق. وما أشبه ظهور آثار الإرادة البشرية تلك، في فوضى الطبيعة، بولادة الفكرة من رحم الأفكار الحائرة. ففي الحالتين، تولد الرؤية فجأة، كعمود من نور، ينظم الأشياء كما الأفكار. ويسمح بالنظر إلى البعيد. وفي كلتا الحالتين أيضاً، لا تدوم لحظات الاستنارة هذه طويلاً. فما أن تعود الأمور إلى نصابها وتأخذ الروح بالحركة، حتى تتلاشى الرؤية، ما لم تسجل في الذاكرة أو توثق بالكتابة.

يبقى أن السير في غابة كهذه، هو حافز قوي للتفكير. وكان لانتييه بحاجة إليه. فعلاوة على القضية التي بين يديه، كان يفكر في الحياة التي

تنتظره، والمرحلة التي سيجتازها، بتركه الحياة العسكرية. كان يفكر في هذه الحرب التي انتهت للمرة الثانية. بمحاكماتها النهائية. كما ذكره صف الأشجار بالمقابر التي أُنشئت على أرض المعارك لاحتواء رفات الجنود القتلى. تلك البذور التي لن تنبت أبداً. اكتشف بركة في وسط الغابة ومشى حول ضفافها. صادف صيادين كانوا يجوبون الغابة، تسبقهم كلابهم التي أتتَ تتشممه، فكر لانتييه في أن صحبة الكلاب كانت الأمر الوحيد الذي لا يشوب نقاء الوحدة. فكر في غليوم، وكيف أن مورلاك، حتى في كربه، كان محظوظاً جداً لكون هذا الحيوان قد صحبه باستمرار. ووَدّ لو كان ممتناً له أكثر. ثم صعد باتجاه سهل مزروع بالشعير، بمحاذاة الحقول التي يموج فيها مدى من الإبر الشقراء. ثم وجد نفسه على درب مغبر يؤدي إلى المدينة. ولم يكد يتجاوز مسافة مئتي متر حتى لمح رجلاً راكباً على دراجة آتياً صوبه. كان غابار.

- كنت أبحث عنك، قيل لي إنك هنا.

كانت تلك نهاية الوحدة، مشى رئيس الإمداد مع لانتييه وهو يدفع بدراجته. روى له ما قد اكتشفه. فكر لانتييه في أن الرجل كان وفياً أيضاً كغليوم، لكن التنزه برفقة شرطي لم يكن له الأثر نفسه...

*

لعن دوجو في سره القاضي الذي طلب إليه أن يقوم بنوبة حراسته في الخارج. ما هذه الفكرة، أن يقوم القاضي باستجواب السجين خارج زنزانته وإحضاره إلى المكتب! حسناً، كان ذلك اليوم الأخير للتحقيق. وكان عليه أن يوقع على محضر الاستجواب ويسمع قرار القاضي، بالرغم من ذلك، يا لها من فكرة... لقد تم انتهاك القوانين، وسيكون لذلك أسوأ

الأثر. كان لانتيه جالساً خلف المكتب قبالة المتهم، على كرسي حانة تنقصه إحدى ذراعيه.

* لقد فكرت كثيراً، اسمح لي يا مورلاك بأن أقول لك ذلك: لا تزال الفكرة بأنك أقدمت على عمل إنساني ناقصة برأيي.

- عن ماذا تتحدث؟

* قصة التآخي تلك، والتمرد الذي كنتم تعتزمون القيام به من أجل إنهاء الحرب ...

- أجل؟

* هذه هي الإنسانية بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ الأخوة مقابل الكراهية إلخ...

- بالطبع.

* حسناً، أظن أن تعريفك منقوص. فالإنسانية أيضاً هي أن تكون لك مُثل عليا تحارب من أجلها. كنت تنادي بالسلام لأنك لم تكن تؤمن بتلك الحرب. أنت ضد فكرة الأمة وضد الحكومات البرجوازية. هل أنا مخطئ؟

بهت مورلاك قليلاً لأنه لم يكن يتوقع أن يبدأ النقاش بهذا الشكل ولم يكن مستعداً له.

* ولكن، تابع القاضي، إن كنت فعلاً تحارب من أجل الأفكار التي تعتنقها، فيبدو لي أنه لم تكن لديك مشكلة، عندما قام الثوريون الروس بالاستيلاء على السلطة في أكتوبر. ألم تصفق لهم؟

- بلى.

* وأين كانت الدعوة للتآخي، عندما تم إعدام القيصر وأسرته؟

- كان هذا ثمن وقوفهم في وجه انتصارات الحركة.

* أها، الثمن... وقف لانتييه واستدار إلى جهة النافذة ويداه خلف ظهره.

- دعنا لا نخض في هذا الموضوع. فقد يطول نقاشنا، أنا متأكد.

التفت لانتييه وحدّق في السجين.

* أردت فقط أن تكون الأمور واضحة. نحن لا نتشاطر القيم نفسها، ولا نؤمن بالأفكار نفسها. لكننا نحن الاثنان مقاتلان.

- إن شئت ذلك. إذاً ماذا؟

* إذاًبرأيي، ما قمت به، والذي بسببه عليَّ أن أحكم عليك، من وجهة نظر معركتك، هو خطأ.

لم يُخفِ مورلاك دهشته.

* خطأ وضعف، إن سمحت لي. فما قمت به لا يتوافق مع المعركة التي كنت تخوضها، والتي، ودعني هنا أذكرك، لم تكن معركتي.

- لم أفهم ما تقوله.

* لم تفهم. حسناً، لنعد ترتيب الأحداث. جلس لانتييه فاتحاً ملفه المنضد على طاولة المكتب.

* «في الرابع عشر من يوليو عام 1919، قرأ لانتييه، في الثامنة والنصف صباحاً، وأثناء التحضيرات للموكب في باحة دانتون، اقترب المدعو جاك مورلاك من المنصة الرسمية، حيث كانت قد اتخذت الشخصيات الاعتبارية مكانها، حول السيد إميل لوغانيور، محافظ

الدائرة. كان المدعو مورلاك من المحاربين القدامى، وهو ينحدر من عائلة من المزارعين، ذات سمعة طيبة في المنطقة. ونظراً لإصاباته ووسام فيلق الشرف الذي استحقه في المعركة، لم يرَ الشرطي المناوب عند منصة الشرف داعياً لإبعاده».

تجاهل مورلاك ما سمعه، ونظر بعيداً.

* «قام المدعو مورلاك بالتقدم نحو السيد إميل لوغانيور وتوقف على بعد أقل من ثلاث خطوات من المنصة الرسمية.خيم صمت مطبق على ضيوف الشرف. عندها، وبأعلى صوته، تحدى المدعو مورلاك السلطات بإعلانه عن هويته».

رفع لانتييه نظره ليتأكد إن كان السجين يصغي.

* «ثم، ودون الاستعانة بنص مكتوب، ألقى كلمة كان من الواضح أنه قد حفظها عن ظهر قلب ومع سابق إصرار: «نظراً لسلوكه المثالي على جبهة الشرق، وعدم تردده في مهاجمة جندي بلغاري جاء مسالماً، استحق الجندي غليوم، الماثل أمامكم، أرفع تقدير في البلاد».

ارتسمت على وجه مورلاك ابتسامة حزينة.

* بعد ذلك، تناول المدعو مورلاك الوسام وأضاف: «أيها الجندي غليوم، باسم رئيس الجمهورية، نرحب بك في رتبة العار التي تحتفي بالعنف الأعمى، والخضوع للأقوى، والغرائز الأكثر حيوانية، ونمنحك وسام فيلق الشرف برتبة فارس». من ثم قام بتعليق الحلية في رقبة الكلب، وأدى التحية العسكرية واستدار كي يتقدم العرض العسكري، الذي وصلت طلائع أفواجه في تلك الأثناء بمحاذاة المنصة الرسمية. مشى المدعو مورلاك على رأسهم، يسبقه كلبه ووسامه المضحك».

كما لو أنه سمع اسمه، قام غليوم، من قلب الساحة، بالنباح مرتين بصوت خافت.

- «انتبهت الحشود المنتشرة في الميدان، إلى هذا الاستفزاز، فانفجرت عاصفة من الضحك والنكات. وسمعت عبارة «فلتسقط الحرب»، مختلطة بالتصفيق. جرى كل شيء بسرعة كبيرة، حتى أن الشرطي الذي في الخدمة، والذي لم يسمع كلام المدعو مورلاك، لم يتمكن في الوقت المناسب أن يسيطر على غضب الجماهير الذي تفجر ضد السلطات. كان الرقيب غابار، الذي شاهد من مكتبه العرض السيئ للمدعو مورلاك وكلبه بطوقه الأحمر على رأس القوات، هو من شرع في إلقاء القبض عليه. مما أثار العداء بين الحشود. تم رجم الرقيب بالحجارة ، فأصيب بجروح طفيفة في الرأس. وأمر المحافظ بتفريق الحشود طالباً تدخل القوات بالزي العسكري الذين تم إعدادهم من أجل العرض. وانتهى الحفل هذا العام دون التمكن من تقديم التكريم الرسمي للأمة».

اعتدل لانتييه في جلسته ودفع بالسجل.

- هل تريدني أن أوقع؟ قال مورلاك بنفس الابتسامة المضناة.

* هل تعلم ما قد يجر عليك هذا الفعل من عواقب؟

- لا يهمني. أطلق عليَّ النار إن شئت.

* لم نعد في حالة حرب، و العدالة ستكون أقل تسرعاً. ولكن العقوبة ستكون الترحيل على الأرجح.

- إذاً أرسلني إلى السجن، أنا مستعد لذلك.

* أجل أنت مستعد، لا بل تتمنى ذلك، لقد فهمت الأمر منذ

البداية. رفضت كل الحلول التي اقترحتها عليك للتخفيف من جرمك والحصول على حكم مخفف. وطالما أن الشيء بالشيء يذكر، فلماذا ترغب في أن تتم إدانتك؟ هل تظن حقاً أن هذا قد يخدم قضيتك؟

- كل ما يزيد من كراهية الحرب لدى الناس هو جيد بالنسبة إلى القضية التي أحارب من أجلها، كما قلت. إن رفض الأبطال المزعومون التكريم الدنيء من الذين نظموا هذه المجزرة، فسيتوقف الاحتفال بالنصر المزعوم. النصر الوحيد الذي يستحق الاحتفال، هو النصر على الحرب وعلى الرأسماليين الذين أشعلوها.

نهض القاضي، ومشى إلى أمام المكتب وجلس على كرسي قبالة مورلاك. تلامست ساقاهما تقريباً.

* إلى أي حد أنت مقتنع بما تقوله؟

اضطرب مورلاك أمام ابتسامة الضابط.

- أنا أؤمن بذلك، وهذا كل شيء.

* أما أنا، فأقول لا. لقد بنيت حجتك وتمسكت بها. ولكنك لا تؤمن بها.

- لماذا؟

* لأنك لست على هذا القدر من السذاجة للظن بأن تمثيليتك الصغيرة تلك، ستغير وجه العالم.

- إنها البداية.

* كلا إنها النهاية. بالنسبة إليك بكل الأحوال. فستختفي في مستعمرة بعيدة، مشتغلاً بتكسير الحجارة، ولن تعود البتة.

- ما الذي تفضّله؟

* بالنسبة إلي، لا شيء. ولكننا نتحدث عنك. ستخسر «قضيتك» واحداً من المدافعين عنها. وستطلق الطلقة الوحيدة في مخزنك، دون أن تصيب أحداً، و دون أن تدفع «بالقضية» إلى الأمام قيد أنملة.

- إن حكمت عليَّ، فالناس سوف يثورون.

* أتعتقد ذلك حقاً؟ يمكنك جعل الناس يضحكون، وهذا أمر معلوم. ولكن كم واحداً من بين هؤلاء الذين صفقوا لك، سينبري للدفاع عنك؟ إن لم تفعل شيئاً، فستجد هؤلاء الذين هللوا في العرض، الشعب نفسه، الذي تعول عليه، والذي تعب من القتال، حتى ضد الحرب. ستجدهم يمرون بلا مبالاة من أمام النصب التذكاري للشهداء.

- الثورة قادمة.

* لنقل أنك محق، وأن الثورة ضرورية. كيف تعتقد أنك تستطيع الإطاحة بالنظام القائم؟ أعن طريق تطويق عنق كلبه بوسام أمام المحافظ؟

لم يكن هناك أي ازدراء في لهجة لانتييه. بل كانت الإهانة أكثر مرارة.

- أنا أؤمن بالأمثلة الفردية، أجاب مورلاك، إنما دون قناعة. كانت وجنتاه محمرتين، ربما من الخزي، أو من الغضب. ترك القاضي فسحة من الصمت. وسمع وقع حوافر حصان على بلاط الساحة، ثم عاد الصمت ليسود مجدداً.

* لنتكلم بجدية لو سمحت، دعني أقل لك الآن لماذا أقدمت على هذا العمل، ولماذا تريد أن تختفي من الوجود.

- أنني أصغي.

* بعد النقاهة، تمت إعادتك إلى باريس. حيث بقيت هناك لبضعة أشهر من دون عمل. مكتفياً بالإنفاق من معاشك. وطوال تلك الفترة، كانت لديك العديد من الفرص للاتصال بالناشطين. لكنك لم تفعل. لو كنت مهتماً إلى هذا الحد بالثورة، فمن المرجح أنك كنت لتستغل وجودك في العاصمة للانخراط بنشاط ثوري.

- كيف علمت بذلك؟

* الأمر بسيط، فعندما سلّموني قضيتك، أعطاني مكتب الأركان ملفك. فقدامى المحاربين على جبهة الشرق مراقبون عن كثب من قبل الشرطة. والصداقات التي عقدتها مع الروس لم تمر مرور الكرام، فعند عودتك قامت أجهزة الاستخبارات بالتحقق من أنه لم يكن لديك صلات مشبوهة. رفع مورلاك كتفيه لكنه لم يعترض.

* وصلت إلى هنا في الخامس عشر من يونيو، وسكنت لدى أرملة تؤجر غرفاً. لقد كنت غاية في السرية والتحفظ، حتى أنك لم تذهب لزيارة صهرك الذي تولى مزرعة العائلة.

- لم أكن أحبه، وهو يبادلني الشعور نفسه. فهو شخص كسول ولص.

* أنا لا أصدر أحكاماً. إنها الحقيقة. ومع ذلك، فكثيراً ما كنت تذهب لرؤية ابنك.

بالنسبة إلى مورلاك، كانت تلك ضربة غير متوقعة ولم يستطع إخفاء دهشته.

* كنت تختبئ لمشاهدته. و مرة، حاولت التحدث إليه فأخفته. ولكنك عاودت الذهاب وكنت أكثر حذراً.

- وماذا في ذلك؟ ليس في الأمر جريمة.

* ومن يتحدث عن جريمة؟ مرة أخرى، أنا لا أصدر أحكاماً. أنا أحاول فقط أن أفهم.

- وماذا هناك لتفهمه؟ هذا ابني، وأردت أن أراه، ذلك كل ما في الأمر.

* بالطبع. ولكن لِمَ لَمْ ترَ أمه؟

- لقد اختلفنا.

* أحسنت القول! انظر إليَّ يا مورلاك، أنت رجل ذكي، ولذلك، كما للعديد من الأسباب، أخشى أنك تكذب على نفسك. نهض لانتيه وفتح النافذة التي لم تكن مزودة بقضبان، على مصراعيها، وكان دوجو قد تقدم من أجل رؤية ما يحدث، أشار له القاضي أن يبتعد. ففعل، واستند على حافة، ناظراً إلى الساحة. كان الكلب دائماً في نفس المكان جاثماً على قائمتيه الخلفيتين.

* لقد كنت ظالماً كثيراً بحق هذا الحيوان المسكين، قال القاضي بتفكّر، تريده لولائه. وتقول إنها خصال خاصة بالحيوانات. ولكننا جميعاً نمتلكها وأولهم أنت.

التفت إلى مورلاك.

* أنت في الواقع تضع تلك الخصال فوق كل شيء، بحيث أنك لم تغفر أبداً لفالنتين عدم احتفاظها بها. بل إنك أكثر رجل قابلته وفاءً.

المسكينة، لم تتخلَّ عن الحب الذي كانت تكنه لك. ومن أجلها أيضاً عدت إلى هنا، أليس كذلك؟

هزّ مورلاك كتفيه غير مبالٍ. ونظر إلى يديه.

* لا أعتقد أن الفارق الحقيقي عن الحيوانات، تابع القاضي كلامه، هو الوفاء، فالصفة التي تميز البشر بشكل قاطع، هي شعور من نوع آخر، وما زالت لديك بقاياه.

- وما هو؟

* الكبرياء.

أصاب لانتييه هدفاً، أما مورلاك، الذي تحطمت حججه، أحس أنه مهدد.

* لقد فضّلت معاقبتها ومعاقبة نفسك، عن طريق القيام بهذه التمثيلية من التمرد أمامها، بدلاً من التحدث إليها لمعرفة ما حدث.

- لم تكن تمثيلية.

* على كل الأحوال، فقد كانت هي المعنية من تلك الحادثة، وكانت رسالة موجهة إليها.

حاول مورلاك أن يعترض للمرة الأخيرة، لكن ما قد قاله لانتييه، قطع عليه طريق الكبرياء، فلفظ السجين جملته خالية من أي لهجة

- سيكون من الأفضل لو أنها تلقت الرسالة.

* من المؤسف أنك لم تسمع جوابها.

سُمعت صيحات أطفال، قادمة من الساحة المجاورة. وبدا أن الهواء

الحار والساكن لم يكن يحمل إلا الأصوات الواضحة، كجرس الكنيسة الذي كان يقرع كل ربع ساعة.

* بكل الأحوال، أعطى لانتييه الخلاصة بصوت حازم، لن أنخرط في استفزازاتك. إذ أن من المنتظر مني أن أعاقبك. وأعلم ما هو العقاب الذي سأنزله بك. العقاب الذي من شأنه أن يلحق أكبر الضرر بكبريائك. ستراه وتسمعه. ستسمعه حتى النهاية وسترى كم كنت مخطئاً. هذا ما سيكون عليه حكمك. ولكن حذار ، فلا أريد أية مواربات.

- هل لدي الخيار لأرفض؟

* كلا.

أغلق لانتييه أزرار صدريته التي تركها مفتوحة خلال الاستجواب، واحداً واحد. وأخذ سترته التي كانت معلقة على ظهر الكرسي، خلف المكتب ولبسها. مرر يديه في شعره لتسريحه، ومسد شاربيه الرفيعين. وقف باستعداد، وقفة ضابط نموذجية.

* لقد تم إغلاق هذه القضية، ولن أسمع اعتراضاتك.

لكن هذه الثقة، كانت تخفي وراءها شعوراً بالخزي، خجلاً علق بما قرر أن يقوله قبل أن يخرج. لم يعد قاضياً ، بل شخصاً كغيره عندما أضاف:

* لدي الآن، مع ذلك، معروفاً لأطلبه منك.

- 10 -

عاد القاضي مباشرة إلى الفندق، إذ كان يعلم أن فالنتين كانت بانتظاره هناك. كانت جالسة في البهو الكبير وهي تحس بضيق، تحت لوحة تصوّر حنطوراً، تم وضعها بالقرب من الزاوية اليمنى، هناك حيث صور الفنان نزلاً ريفياً. كما لو كانت صحبة المزارعات اللواتي يقفن على باب النزل توحي برهبة أقل من تلك التي للسيدات الجميلات اللاتي مددن رؤوسهن من شبابيك أبواب العربة. ونهضت قافزة عند رؤيتها للضابط.

- إذاً؟ قالت له وهي تمسك بيده.

* اذهبي لرؤيته فوراً، إنه ينتظرك.

صعد الدرج دون النظر إلى الوراء، كي لا يرى انفعالات المرأة الشابة، وربما أيضاً، كي يداري انفعالاته، ثم أضاف:

- إنه حر.

- 11 -

عبرت السيارة الريف. كانت سيارة عسكرية كبيرة من طراز سيدان بمصابيح كبيرة من الكروم ومصدات دواليب ذات لون أسود. سخّنت الشمس غطاء محرك السيارة، وكان لانتييه قد خفض الزجاج الأمامي للحصول على الهواء. اجتاز القرى، تصحبه صيحات الأطفال، ورفع قبعته محيياً الرجال الذين يعملون في الحقول. هبّت عواصف عشية اليوم السابق، وأصبح من الواجب الإسراع بحصاد آخر الأمتار المتبقية من حقول القمح. حمل الهواء رائحة الخريف وبدأت الغابة تتلون بأطيافها البنية الأولى.

أراد لانتييه السفر بملابس مدنية من أجل الاعتياد على حياته الجديدة. وعند اجتيازه أورليان، تاق للوصول إلى باريس، للقاء زوجه وأولاده. كيف سيتقبلون الهدية التي أحضرها لهم؟ من الأفضل التفكير أنهم سيكونون سعداء لرؤيته سعيداً. في الحقيقة، لم تكن تلك هدية لطيفة للغاية. إلى جانب ذلك، لم يصعب على مورلاك أن يقدمها له...

في بعض الأحيان ، كان لانتييه يستدير نحو المقعد الخلفي ويلقي

نظرة سريعة فاحصة، كلا، بالفعل، لم تكن هدية لطيفة للغاية. أو بالأحرى، كانت له وحده. مد ذراعه، فشعر بالألغاد[12] الهرمة على يده. يا لها من هدية مضحكة، حقاً!

* أليس كذلك يا غليوم؟ صاح.

بدا أن الكلب أيضاً كان يبتسم.

12- الألغاد مفردها لغد، وهي الخد المتدلي والرقبة المزدوجة.

تحية

في عام 2011، أرسلتني مجلة أسبوعية فرنسية إلى الأردن لمراقبة الربيع العربي. ولسوء حظي، كان البلد الوحيد الذي لم يكن يحدث فيه شيء.

قضينا أيامنا، أنا و بونوا غيزيمبه ، المصور الذي كان برفقتي، باحتساء الجعة ورواية القصص. كان بونوا صبياً مفعماً بالموهبة والخيال. مكنته الحياة من عبور قرن من الزمن، ومراقبة العديد من الأحداث الروائية البارزة عن كثب. وعلى الرغم من جميع النوادر التي رواها لي في تلك الأيام الكسولة، اخترت واحدة فقط.

كانت نادرة بسيطة وقصيرة جداً، ولكنني شعرت على الفور، أنها كانت واحدة من تلك الجواهر الصغيرة والنادرة التي تهبها الحياة، والتي بالاعتماد عليها، يمكن بناء صرح روائي. كانت تلك قصة جده.

بعد عودته كبطل من حرب عام 1914، بوسام فيلق الشرف يزيّن صدره، ارتكب مرة، تحت تأثير الشرب، فعلاً لا يصدّق بالنسبة إلى تلك الحقبة، ومخالفة، كان من المقرر أن يعتقل ويحاكم على إثرها.

تلك كانت الحلقة التي يتم العثور عليها في نهاية هذا الكتاب.

لم أتوقف، عند كتابة هذه الرواية، عن التفكير ببونوا. وعرفت بأمر مرضه عند كتابتها.

لسوء الحظ لم يتمكن من قراءتها، إذ أن الموت سبقني إليه، ولم يمهلنا لإنهائها .

لم يكن لدي سوى الوقت لأقول له أنني أهديتها له.

هذه الصفحات له، تخليداً لذكراه.

كان صديقاً عزيزاً ومصوّراً كبيراً.

جان كريستوف روفان

ولد في 28 يونيو عام 1952 في بورج في مقاطعة شير، هو طبيب، مؤرخ، كاتب ودبلوماسي فرنسي. وعينته فرنسا سفيراً لها في السنغال وغامبيا. عمل لأكثر من عشرين عاماً في الحقل الإنساني لصالح المنظمات غير الحكومية في نيكاراغوا وأفغانستان والفلبين ورواندا والبلقان وترأس منظمة ACF، «العمل ضد الجوع». وقد تناول الكاتب بالدراسة من خلال تجربته على الأرض، دور المنظمات غير الحكومية في حالات الصراع، وخصوصاً في دراسته الأولى، «الفخ الإنساني» (1986)، وهي مقالة عن التحديات السياسية التي تواجه العمل الإنساني ومفارقات الحركات «بلا حدود» والتي من خلال مساعدة الشعوب، تقوم بتوطيد أركان لعبة الحكام المستبدين. وأيضاً في الرواية الثالثة، الأسباب المفقودة (1999). تدور كتاباته حول أدب المغامرة والرواية التاريخية والسياسية، ويمكن تشبيهها بأدب الرحلات، معظم أحداثها من التاريخ، وله كذلك روايات استشرافية. حاز جان كريستوف روفِن على العديد من الجوائز عن أعماله الأدبية، ففازت روايته الأولى «الحبشي» بجائزة غونكور للرواية الأولى عام 1997، كما حصلت روايته «البرازيل الحمراء» عام 2001 على جائزة غونكور أيضاً. وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية

في 19 يونيو 2008 ليصبح أصغر الأعضاء فيها سناً. حازت رواية الطوق الأحمر على جائزتين: الأولى جائزة الأطباء عام 2014 وجائزة موريس جنيفوا لمدينة غارش في العام نفسه.

ريتا باريش

من مواليد مدينة دمشق عام 1981، درست الترجمة بين عامي 2002 و2006 بجانب تخصصها في الآثار ومن ثم في المصارف والتمويل حيث حازت فيها على درجة الماجستير من جامعة بوردو، لتعمل في الحقل المالي والمصرفي، وكانت تحضّر لنيل شهادة الماجستير في الترجمة (فرنسي - عربي) من جامعة ليون. اهتمت مبكراً بآداب اللغة الفرنسية وعلوم اللغة واللسانيات إضافة الى إجادتها للإسبانية والإنجليزية والألمانية، وهي مقيمة حالياً في فرانكفورت حيث تعمل كمترجمة مستقلة منذ مطلع عام 2014.

إصدارات دار ممدوح عدوان

- الأعمال المسرحية الكاملة ممدوح عدوان. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

- الجنوبي. سيرة الشاعر أمل دنقل. تأليف: عبلة الرويني. ط2 (2006).

- هواجس الشعر. دراسة نقدية. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

- أعدائي. رواية. تأليف: ممدوح عدوان. ط3 (2007). ط4 (2015)

- وحيدا كذئب الفرزدق. مختارات شعرية. تأليف: أمجد ناصر. ط1 (2007).

- تهويد المعرفة. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2007). ط2 (2015).

- تفسير الأحلام. قصص قصيرة. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2007).

- زوربا البرازيلي. رواية. تأليف: جورج آمادو. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2007). ط3 (2014).

ـ تقرير إلى غريكو. سيرة ذاتية. تأليف: نيكوس كازنتزاكيس. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2007).

ـ النقد الذاتي بعد الهزيمة. دراسة. تأليف: صادق جلال العظم. ط3 (2007).

ـ حيونة الإنسان. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط2 (2007). ط3 (2014).

ـ جنون آخر. مقالات. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2007). ط2 (2015)

ـ حكاية الشيخ أبي خليل القباني والوالي مدحت باشا العثماني. مسرحية. تأليف: دلع الرحبي. ط1 (2008).

ـ مولانا. مسرحية. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2008).

ـ بنات نعش. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط1 (2008).

- أطياف ممدوح عدوان: شهادة الحياة وشهادة الابداع. دراسة. تأليف: أ.د محمد صابر عبيد. ط1 (2008).

ـ تاريخ التعذيب. دراسة. تأليف: بيرنهاردت ج. هروود. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2008).ط3(2015).

ـ لا غبار عليك. شعر. تأليف: لقمان ديركي. ط1 (2008).

ـ دفاعاً عن الجنون. مقدمات. تأليف: ممدوح عدوان. ط4 (2009). ط5(2010) ط6(2015)

ـ الإلياذة. تأليف: هوميروس. ترجمة وتعليق: ممدوح عدوان. ط2 (2009).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة محمد مردان. شعر. تأليف: د. محمد مردان. ط1 (2009).

ـ سلطانات الرمل. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط1 (2009)

ـ الخارطة الشعرية في الأغنية الرحبانية. تأليف. محمد منصور. ط1 (2009)

ـ خطفني الديك. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط1 (2009)

ـ التفاتة العابر في ظله. شعر. تأليف: محمد أبو لبن. ط1 (2009)

-أدونيس وفاتح. حوار. ط1 (2009).

ـ الجرذان الغريقة. رواية. تأليف: وائل رداد ط1 (2010).

ـ المتنبي في ضوء الدراما. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان ط2 (2010).

ـ النار والأبد. دراسة. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

ـ امرأة تنظر باتجاه الماء. شعر. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

ـ البحر والصفصاف. مسرحية. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

ـ وداد من حلب. رواية. تأليف: قحطان مهنا. ط1 (2010)

ـ سارة شما. أعمال فنية (2011).

ـ تجربة الصين الاقتصادية. تأليف: سمير سعيفان. ط1 (2011)

ـ مسرحيات عربية من الألفية الثالثة. تأليف: مجموعة مؤلفين. ط1 (2011)

ـ حب. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط1 (2011)

ـ هُنا في الحديقة. مسرحية. تأليف: لواء يازجي. ط1 (2012)

ـ موتى يقلقون المدينة. قصص. تأليف: عمران عز الدين. ط1 (2012)

ـ سكران المجانين. شعر. تأليف: عدنان عودة. ط1 (2012)

ـ رسالة إلى الجنرال فرانكو. رواية. تأليف: فرناندو أرّابال. ترجمة: عمار أتاسي. ط1 (2013)

- قفزة في الهواء (الديوان الأخير). شعر. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2014).

- أُنقِذَ. مسرحية. تأليف: إدوارد بوند. ترجمة: لواء يازجي. ط1(2014).

- الأصبع السادسة. رواية. تأليف: خيري الذهبي. ط2 (2014).

- أنا حوري. شعري محكي. تأليف: عدنان عودة. ط1(2014)

- سدهارتا. رواية. تأليف: هرمان هيسه. ترجمة: ممدوح عدوان. ط3(2015)

- قطعة ناقصة من سماء دمشق. نصوص. تأليف: رائد وحش. ط1(2015).

- أمير الروح والمنارة المفقودة. رواية. تأليف: فريدرك برونيوس، ترجمة: رامي بيروتي. ط1(2015).

- الليل أفضل أنواع الإنسان. شعر. تأليف: عادل محمود. ط1(2015).

- الطوق الأحمر. رواية. تأليف: جان كريستوفر رافين. ترجمة: ريتا باريشي. ط1(2015).

- موسم سقوط الفراشات. رواية. تأليف: عتاب شبيب. ط1(2015).

- الزير سالم، البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط2(2015).

- ما الذي أؤمن به، مقالات في الحرية والدين والعقلانية. مقالات. تأليف: برتراند راسل. ترجمة: عدي الزعبي. ط1(2015).

سلسلة ذاكرة المسرح السوري بالتعاون مع احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008

1.	أبو خليل القباني	ناكر الجميل
2.	عبد الوهاب أبو السعود	وامعتصماه
3.	وصفي المالح	طريق النصر
4.	خليل هنداوي	هاروت وماروت
5.	حكمت محسن	صابر أفندي
6.	مراد السباعي	شيطان في البيت
7.	حسيب كيالي	قارعوا الأبواب
8.	سلمان قطاية	القضية والحل
9.	محمد الماغوط	العصفور الأحدب
10.	وليد مدفعي	ويعدين؟!
11.	وليد فاضل	إيفا
12.	وليد إخلاصي	سهرة ديمقراطية على الخشبة
13.	سعد الله ونوس	طقوس الإشارات والتحولات
14.	فرحان بلبل	الممثلون يتراشقون الحجارة
15.	علي عقلة عرسان	رضا قيصر

16. مصطفى الحلاج	الدراويش يبحثون عن الحقيقة
17. عبد الفتاح قلعجي	العرس الحلبي
18. رياض عصمت	لعبة الحب والثورة
19. ممدوح عدوان	ليل العبيد
20. حكيم مرزوقي - عبد المنعم عمايري	حلم ليلة عيد ـ صدى
21. زيناتي قدسية ـ موفق مسعود	مجنون يحكي ـ الرجل الدائري
22. الأب إلياس زحلاوي	المدينة المصلوبة
23. أحمد يوسف داود	الخطا التي تنحدر
24. شوقي بغدادي	تلك الليلة
25. الكتاب الشباب ج 1	
ـ عدنان العودة	خيل تايهة
ـ عمر أبو سعدة	ليلة
ـ محمد أبو لبن	آخر العشاق
ـ يم مشهدي	باريس في الظل
ـ الفارس الذهبي	ريح
26. الكتاب الشباب ج 2	
ـ هوزان عكو	بروانة أو الحرائق
ـ كفاح الخوص	حكاية بلاد ما فيها موت
ـ وائل قدور	الفيروس
ـ ليندا الأحمد	الملحق
ـ يامن محمد	قدم إلى الأمام قدم إلى الوراء

كان يقدس الوطن ويضعه في المقدمة ومعه جميع الأفكار الكبرى كالشرف والعائلة والتقاليد. ويعتقد أن على الأفراد الخضوع لها، بما في ذلك مصالحهم الشخصية البائسة، إلى أن احتك بهؤلاء الأفراد في الخنادق وكان أحياناً في صفهم. لدرجة أنه سأل نفسه في مناسبة أو مناسبتين، ما إن كانت معاناتهم أجدر بالاحترام من القيم التي تمت تعبئتهم باسمها.

***

كان مبدؤنا بسيطاً: فمن أجل أن تكون حركة المقاومة للحرب فعالة، كان لا بد من نشرها على جانبي الجبهة. وإلا، فإنها ستتحول إلى هزيمة لأحد الطرفين، وسيتهم أولئك الذين رفضوا القتال بالخيانة. لهذا، أردنا أن ننشر التآخي أولاً ومن ثم العصيان.

***

كان المشهد مروعاً. لقد قتلنا رفاقاً كانوا على وشك الانضمام إلينا. قبل بضع دقائق، كنا نستعد للتآخي، وعند الهجوم، قتلنا منهم كل من ظهر في وجهنا.

مكتبة
الفكر الجديد
20-03-2017

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-540-01-2
9 789933 540012